

المُلتقى العربي الثاني للتراث الثقافي بعنوان:

"الأصالة والمجتمع وحفظ التراث



الناشر: المكتب الاقليمي لحفظ التراث الثقافي في الوطن العربي (إيكروم-الشارقة). المكتب الاقليمي لحفظ التراث الثقافي في الوطن العربي (إيكروم-الشارقة)، صندوق بريد 48777، الشارقة، الامارات العربية المتحدة

حقوق الملكية الفكرية محفوظة لإيكروم-الشارقة 2022 ©

الرقم الدولي الموحد للكتاب ISBN: 6-92-9077-327-6



هذا المنشور متاح بموجب ترخيص الرخصة الدولية (CC BY-NC-SA 4.0). وباستخدام محتوى هذا المنشور، يقبل المستخدمون (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-sa/4.0/). وباستخدام محتوى هذا المنشور، يقبل المستخدمون الالتزام بشروط الاستخدام لأي مستودع بيانات خاص بمنظمة ايكروم ومتاح للوصول في المستقبل.

إخلاء مسؤولية: إن التسميات المستخدمة واسلوب تقديم المواد في هذا الكتاب لا يعني التعبير عن أي رأي كان لمركز إيكروم-الشارقة فيما يتعلق بالوضع القانوني لأي بلد، أو منطقة، أو مدينة، أو للسلطات فيها، أو فيما يتعلق بتحديد تخومها أو حدودها. إن الأفكار والأراء الواردة في هذا الكتاب هي آراء المؤلفين، وليس بالضرورة آراء مكتب إيكروم-الشارقة ولا تكون مُلزمة له.

هيئة التحرير:

د. زكي أصلان، المكتب الاقليمي لحفظ التراث الثقافي في الوطن العربي، (مدير المكتب الاقليمي) م. شيرين ساحوري، المكتب الاقليمي لحفظ التراث الثقافي في الوطن العربي، (مديرة مشاريع التوعية والتطوير) م. أنور سابق، المكتب الاقليمي لحفظ التراث الثقافي في الوطن العربي، (مدير التخطيط والمشاريع الميدانية)

قدّم المساعدة لهيئة التحرير كل من:

ترجمة وتحرير: السيدة ماري عوض

التصميم

محمد عرقسوسي

المحتويات

	مقدمه
4	د. زكي أصلان و م. شيرين ساحوري
	الفصل الأول: الأصالة، المعاصرة، وإعادة البناء
7	 مأزق ثنائيات الأصالة والمعاصرة التراث والحداثة في الحفاظ على الهوية الثقافية د. طارق والي
14	 الأصالة والهويّة في سياق التراث الإسلامي المعاصر إيجاد طرق لتسليم التراث الذي دمّرته الحرب بالثراء الكامل لأصالته د. عمرة حجي محمدوفتش
38	 3. التحديات التي تواجه أصالة التراث الثقافي السوري بعد الحرب: حلب نموذجًا أ. مأمون عبدالكريم
	الفصل الثاني: دور المؤسسات الثقافية في إشراك المجتمع
51	 5. المتحف الفلسطيني و الأصالة في سياق التُراث الحَيّ د. عادلة العايدي - هنيّة
54	 6. التراث كمحرّك للتنمية - مبادرة "الأثار لينا" في القاهرة التاريخية د. مي الإبراشي
	الفصل الثالث: دور الحوار الثقافي في فهم تراث "الآخر"
71	10. صوت الدبلوماسية الثقافية في زمن الأزمات السياسية أ. د. جيهان زكي
80	11. الدبلوماسية الثقافية د. اوليفر مارتن
84	12. التراث الثقافي والحوار الثقافي: تجارب دولية في تعزيز الحوار في منظمتي اليونسكو وإيكروم د. منير بوشناقي

المقدمة

د. زکي أصلان و م. شيرين ساحوري

يأتي الملتقى العربي الثاني للتراث الثقافي، والذي انعقد بشكل افتراضي خلال الفترة من 9 إلى 10 نوفمبر (تشرين الثاني) 2020 تحت عنوان "الأصالة والمجتمع وحفظ التراث"، استجابة للإجراءات الاحترازية التي فرضها انتشار فيروس كورونا في المنطقة والعالم واستمرارًا للمناقشات التي تمت في الملتقى العربي الأول للتراث الثقافي والذي أقيم في عام 2020.

هدف المانقى الثاني إلى مناقشة سمات التراث الثقافي في المنطقة العربية وخصوصية التراث وتنوعه ومفهوم الأصالة في السياق المعماري والعمراني في الوطن العربي. وبالإضافة إلى ذلك، تطرق الملتقى إلى ارتباط مفهوم الأصالة بممارسات حفظ التراث وعلاقته بالأصل والذاكرة واللغات على المستوى الإقليمي بالذات. كما ركز الملتقى على الأبعاد الاجتماعية والثقافية المتعلقة بإشكالية الأصالة والمعاصرة في الحفاظ على التراث الحي وتناول المنهجيات العالمية في مجال التراث الثقافي مقابل المنظور المحلي أو المناظير المتعددة إقليميًا.

شارك في جلسات الملتقى ومواضيعه الفكرية عدد كبير من الخبراء والأكاديميين والباحثين والطلاب والمفكرين والمورخين والمهندسين المعماريين وعلماء الأثار والمختصين في مجال الحفظ من المنطقة العربية والعالم. كما تضمنت جلسات الملتقى العديد من أوراق البحث والعروض التقديمية ودراسات حالة ومناقشات تسهم في وضع رؤى وخطوات مستقبلية لتعزيز مفهوم الأصالة من منظور فكري متأصل في المنطقة وفي الدعوة إلى ترويج أهمية ومعاني التراث الثقافي وضرورة إدماجه في التنمية الحضرية المستدامة. كما ناقش الملتقى أهمية تبني مفهوم الحوار من خلال الدبلوماسية الثقافية كوسيلة لبناء السلام وتعزيز التواصل ومد الجسور بين الشعوب والثقافات.

كما ألقى الملتقى الضوء على ما عاناه العالم العربي من موجة تغيرات حدثت خلال المئة عام الماضية والتي أدت إلى تسارع التغيرات الاجتماعية والثقافية وتفاوتات في مفاهيم القيم الثقافية والمعاني والأعراف الاجتماعية. لذلك، كان لا بد من التطرق إلى جوهر الحفاظ على التراث الثقافي المتعلق بمفهوم الأصالة في السياقين العربي والإسلامي، وذلك بهدف إبراز قيم التراث ومعانيه ورسائله في المنطقة العربية التي تحملها السمات المادية وغير المادية لأنماطه المختلفة.

وكأنحاء مختلفة من العالم، برزت في ظل عصر العولمة والتكنولوجيا الحديثة والثورة المعلوماتية أنماط ثقافية جديدة منها الجيد والمتجدد كما الغريب أو الشاذ أو المستورد أدت إلى تسريع الحاجة إلى إعادة النظر في سياسات التراث الثقافي لتبني مناهج جديدة لدمج ممارسات التراث في التنمية الحضرية المستدامة. وتستند هذه الممارسات بشكل أساسي على تلبية احتياجات المجتمعات المحلية وتُشجّع على تبادل وجهات النظر والتصورات، لا سيما فيما يخص مشاريع إدارة الحفظ والتعافي من الكوارث والحروب، مما سيعزز فهمًا أعمق لمعنى/معاني الحفاظ على التراث المحلية والإقليمية والعالمية.

المقدمة

ومن خلال عقد سلسلة الملتقيات النوعية هذه، يسعى مكتب إيكروم-الشارقة إلى تهيئة منصة حوار تهدف إلى إعادة النظر في المفاهيم من أجل تعزيز القيم الثقافية الإقليمية بتنوعها الثري وبحث مجموعة من الأراء والدراسات التي تقوم بها المؤسسات والبرامج المختلفة حول هذا الموضوع، كما تسهم في تشجيع الخبراء لمناقشة مفهوم الأصالة من منظور محلي وإقليمي يعنى بجوهر الحفاظ على التراث الثقافي في المنطقة العربية والترويج للمعاني والرسائل الخاصة التي يحملها وينقلها التراث إلى الأجيال القادمة.

تقدم وقائع هذا الملتقى نماذج دراسية وفكرية وتطبيقية تطرح قضايا بارزة حول مفهوم الأصالة والمعاصرة وإعادة البناء، وتطرح حلولا تنبثق من دور المؤسسات الثقافية في إشراك المجتمع من خلال البرامج التعليمية ومن خلال المتاحف بتواصلها مع المجتمعات المحلية المختلفة، وكذلك من خلال تعزيز دور الحوار الثقافي في فهم تراث "الأخر". وتستعرض وقائع الملتقى أيضا بعض التطبيقات لمفهوم الأصالة وسماتها أثناء أعمال التصميم والتنفيذ والتفسير وعرض المشاريع التي تهدف إلى حماية وإبراز وإدماج التراث الثقافي كرافد أساسي في التنمية المجتمعية المستدامة.



مأزق ثنائيـات الأصالة والمعاصرة.. التراث والحداثة في الحفاظ على الهوية الثقافية

د. طارق والي

مقدّمـة

تعدّ مسألة إنتاج المصطلحات وتصديرها من أبرز العلامات الدّالة على قوة الحضارات أو انحطاطها؛ فالتاريخ يشهد. إن الحضارات القويّة تكون أقدر من غيرها على إنتاج المصطلحات وعلى تصديرها، بينما تكون الحضارات الضعيفة أكثر ميْلاً إلى الاستهلاك وأكثر بُعْدًا عن الإبداع في هذا المجال. وتبقى الأمم والحضارات في حالة انحطاط ما دامت خاضعة لسلطة المصطلحات الوافدة وما دامت فاقدة للقدرة على إنتاج مصطلحاتها والسعى إلى تصديرها.

ولا يمكن المجادلة بأن المصطلحات هي منظومة قِيَم تحدّد هويّة المجتمعات، لهذا لم تكتفِ الحضارة الغربية الحديثة بالهيْمنة الاقتصادية والسياسية والعسكرية على مجتمعاتنا، بل عملت على تصدير قيّمها ومصطلحاتها وفرضها بأساليب تبدو في كثيرٍ من الأحيان أبعد ما تكون عن التفاعل والتأثير المتبادل بين الثقافات. بل إنها تسعى في أحيان كثيرة إلى إجبار هذه المجتمعات على نسيان إدراكها لمعاني وقيم مصطلحات هي من صميم هويّتها الثقافية أو تغييبها أو تزييفها. وأشير هنا إلى ما تتعرّض له مجتمعاتنا العربية من ضغوط ظاهرة وخفيّة من أجل تخلينا عن هويتنا. ولعلّ من أبرز هذه المواقف إشكاليات فهم وتحديد ماهية مصطلحات هي متواترة في حياتنا الثقافية حول ثنائيات ظاهرها حضاريّ برّاق لكنّها تحمل في باطنها تبعية ثقافية وتغريبًا أو بالأحرى تغييبًا للعقل العربي، ومنها:

الأصالة والمعاصرة .. التراث والحداثة

ولعلنا في أمس الحاجة إلى الخروج من هذا المأزق الحضاري المفروض علينا في السابق، والذي أمسى في الحاضر متجذّراً فينا بإرادتنا، أو بالأحرى دون وعي منّا. وعلينا أن نقف لنعيد فهمنا لتلك المصطلحات من منطلق ثقافتنا وحضارتنا وزماننا بهدف حفظ هويتنا الثقافية وانتمائنا الحضاري.

للأصالة

لن نجد في تراثنا مصطلح الأصالة متداولاً في أدبيات السياق الثقافي والاجتماعي حتى النصف الأول من القرن العشرين مع مفكّري النهضة ومدارس تجديد الفكر العربي. فقد ارتبط ظهور مصطلح الأصالة بمستجدات تقافية واجتماعية، وتدليلاً على موقف محدّد تجاهها أو تقويم لها. غير أنه من الصعوبة بمكان أن نحدّد نقطةً تاريخية بعينها، ومن ثم نتصوّر المخاض الذي تبلُور منه وعنه الوعي المستجدّ في الاتجاهات الفنية والفكرية والسياسية الإيديولوجية. وهنا برز مصطلح الأصالة كمفهوم في الثقافة العربية الحديثة بوصفه إشكالية خصوصية بالوجود العربي، ومن ثم بوصفه قيمةً في حدّ ذاته.

وهناك كثير من اللّبس في التوافق حول المفاهيم، فالبعض يعتقد أن الأصالة لفظ معاكس للمعاصرة. ومن هنا يقع الكثيرون في خطأ حين يقرّون أن الأصالة تعني القوالب الجامدة لأبنية المجتمع سواء فكريًا أو ماديًا ودون أن تمتد إليها يد التطوير تبديلاً أو تعديلاً، لأنها في الأصل في فهمهم تتّسم بالثبات والجمود، ولأنها نشأت من بطن التاريخ وتوارثتها الأجيال، ومن ثم فهي تعدّ نقلاً جامدًا. ونتيجة لهذا اللّبس أو الخطأ تعدّدت المفاهيم السليمة والواضحة للأصالة والمعاصرة.

تذكر معاجم اللغة العربية عدة معاني لمصطلح الأصالة، وعلينا اكتشاف ما يجمع تلك المعاني ويتفرّع منها، وهو ما يضفي عليها صفة قيميّة بالمعنى الاجتماعي والثقافي. فمن معاني الأصالة الصدق والجدّة أو الإبداع، وهو امتياز الشيء أو الشخص على غيره بصفات جديدة صادرة عنه. فالأصالة في الإنسان إبداعه، وجاء في المعجم الوسيط: الأصالة في الرأي جودته وفي الأسلوب ابتكاره وفي النسب عراقته. وأصل الشيء أساسه الذي يقوم عليه ويقصد بالأصالة التجديد أو الانفراد بالأفكار، وعليه تشير الأصالة إلى القدرة على إنتاج أفكار أصيلة أي قليلة التكرار بالمفهوم الإحصائي، أي كلّما قلّت درجة شيوع الفكرة زادت أصالتها ولذلك يوصف المبدع بأنه من يستطيع أن يبتعد عن المألوف أو الشائع من الأفكار.

من هذا نستخلص أن الوصف بالأصالة صالح لكل زمان ومكان، إذا تحققت فيها هذه المواصفات، وليس وصفًا خاصئا بزمن نشأتها وعصر تأسيسها كما قد يتوهم كثيرون، ويقترب لفظ التراث من لفظ الأصالة بل ويتطابق معه. فهو لغة ما يخلّفه الرجل لورثته؛ لكن الأصالة لا تعني العودة إلى القديم والفخر والاعتزاز بالموروث وكأن الماضي يحتوي على قيمة في ذاته، وكأن العودة إليه تكون غاية في ذاتها وليس وسيلة لتعميق الجذور واكتشاف معوقات الحاضر أو الدوافع على التقدّم في المستقبل. ولا تعني الأصالة أيضًا التقوقع على الذات ورفض الغير والنفور من الغريب باعتباره دخيلاً تفقد الذات هو يتها فيه. فالأصالة بهذا المعنى عزلة وفراغ وتجمّد وتقلّص ثم ضمورٌ واضمحلالٌ وفناء. فالذات لا تقوى إلا بالغير في صراعها معه أو تمثلها له، والذات قدرةٌ على الخصوبة والنماء، وطاقةٌ على الحركة والحياة.

وهكذا .. تعني الأصالة البحث عن الجذور والتأسيس في الأعماق، كان البحث عن الأصل والجذور أحد مطالب المحكماء القدماء والمحدثين سواء في تراثنا القديم أو التراث الغربي في حركات العودة إلى الأصول. فكل تغيير بلا أساس يكون حدثنًا أهوجاً في التاريخ، لا يبقى ولا يستمر، قشرة خارجية سرعان ما تتكسّر إذا ما تحرّكت الأعماق ونبتت الجذور. والأصالة بهذا المعنى هي شرطُ المعاصرة وسببُ استمرارها والمحافظة عليها والضامن لها. وتعني الأصالة أيضاً التجانس في الزمان والتواصل في حياة المجتمعات، وأن يكون حاضرها استمرارًا لماضيها، ومستقبلها استمرارًا لحاضرها، فلا يقع الانفصام في شخصيتها، ولا تحدث الازدواجية في ثقافتها بين أنصار الأصالة وأنصار المعاصرة، وبين دعاة القديم ودعاة التجديد، فيحدث تعارض مصطنع بين الأصالة والمعاصرة. وكثيراً ما يتحوّل إلى تيارين متصار عين، وينتهي الأمر إلى ضياع الوحدة الوطنية ممثلةً أولاً في وحدة الثقافة ووحدة المونية ووحدة المهدف والغاية.

المعاصرة

لا تعني فقط نقل أحدث وسائل العلم والتقنيّات من مجتمع إلى مجتمع آخر. فلا يمكن أن يُنقلَ نتاج العلوم والمعارف في مجتمعات تحرّكها الخرافة ولا تأخذ بالأسباب ولا تربط بين العلّة والمعلول. ولا تعني المعاصرة مجرّد نقل مظاهر حضارة العصر وصيحاتها في أساليب الحياة في الفنّ والعمارة والتمتّع بما قد تقدّمه تلك الحضارة من وسائل رفاهية العيش؛ فتصبح المعاصرة بهذا المعنى مجرّد مظهرٍ خارجيّ للحضارة، ونقلاً لأسلوب حياة مجتمع الوفرة إلى مجتمع الندرة، مع إغفال المجتمع لما يعترّ به من تراثٍ حضاريّ. والمعاصرة لا تعني أيضًا قطع الصلة بالماضي واقتلاع الجذور واعتبار الماضي أحدَ المعوّقات عن المعاصرة، فعندها تصبح المعاصرة كأنها نوع من احتقار الذات والوقوع في التغريب.

إن الأصالة لا تحمل جمودًا بقدر اعتمادها بشكل أساسي على التطوير الذي يساير متطلبات العصر في اتساق ويتعايش مع أعراف الأجداد وتقاليدهم. ولهذا كانت المعاصرة نابعة من الأصالة؛ ومن هنا يتم تعريف المعاصرة بأنها لفظ يعني مواكبة العصر ومعايشته. والحداثة أو العصرية تعني عملية التغيير التي تحصل بمقتضاها المجتمعات على الصفات المشتركة التي تتميّز بها المجتمعات المتقدّمة. ويتم إطلاق تسمية العصرية على المجتمع إذا اتصف بها، وهي تعني مجموعة الخصائص البنائية التي تميّز المجتمع المتحضر عن المجتمع المتخلّف.

مـأزق ثنائيــات الأصالة والمعاصرة .. التراث والحداثة في الحفاظ على الهوية الثقافية

أما بالنسبة الفرد، فإنها تعني مجموعة الاتجاهات والقيّم وأساليب التفكير التي تتطلبها المشاركة الفعّالة في المجتمع عصريًا المجتمع. والمعاصرة لا تكون واقعًا فعليًا إلا بمواكبة العصر فكرًا وعملاً وإبداعًا. فقد يكون المجتمع عصريًا في المظاهر المعيشية ومع ذلك يعد هذا المجتمع متخلّفًا عن عصره وإن عاشه، فما أسهل اقتباس تلك المظاهر لمن استطاع إليها سبيلاً. والمعاصرة تختلف عن مجرّد امتلاك وسائل المعرفة بفهم منقوص للتحديث، حقًا كل أمّة بحاجة للتحديث، ولا يتحقّق لها مرادها إلا بإرادة قويّة ونظام قادرٍ وصالحٍ لتعبئة هذه الإرادة وتوجيهها في طريق الحداثة والمعاصرة.

والمعاصرة هي مجابهة مشكلات الحاضر الحادثة والدخول فيها ومواجهتها مواجهة مباشرة. فالمعاصرة تعني رؤية الحاضر والإحساس به، والنظر إلى ما تحت الأقدام. وتعني أيضاً أن يعيش الإنسان أحداث الزمن، وأن يعرف روح العصر، وأن يرفض جميع أشكال الزيف لتغييب الوعي القومي وتعميته ودفعه نحو الغربة والاغتراب، كما تعني عدم إغفال أيّ من مكوّنات الحاضر أو ابتسار جزء منه وقبول مكوّناته. فالتراث جزءٌ من الحاضر يفعل فيه ويؤثّر عليه من خلال سلوك أفراد المجتمع ورؤيتهم الجمعية.

وتعني المعاصرة البحث عن الحاضر الحادث في أساسه وليس في فروعه، والبحث عن الحلول الجذرية لقضاياه الأساسية وليس عن الحلول المؤقتة التي سرعان ما تتبدد وتبقى القضايا قائمة بعد أن ينقضي أثر الحلّ الوقتي. وبهذا المعنى لا تكون المعاصرة استسلامًا للأمور الحادثة بل هي بحث في جذوره التاريخية وأبنيته الحاضرة ومتغيّراته المستقبلية؛ وهي بهذا المعنى لا تعني السير وفقًا لمنطق الأحداث أو تمشّيًا مع التيّار السائد دونما تبصر وفهم واع للمعاصرة.

التراث

هو نتاج عمليات اجتماعية لأمّة ما في حضارات سابقة يتمّ توارثها من السلف إلى الخلف، وتمتد لتشمل الموروث المادي الملموس أو الفكري غير الملموس الذي تتوارثه أجيال في جميع جوانب النواحي المادية والوجدانية. وهذه إما ظاهرة للعيان أو أنها ماتزال خبيئة تحتاج اليوم إلى اكتشافها من جديد، أو أنها مهملة في تجاهل مقصود أو مفروض نتيجة قصور في فهمها وأدراك أهميتها. إن التراث هو ذاكرة المجتمع بما مرّ عليه من أحداث وأزمات ومراحل تطوّر مختلف الإبداعات واستمراريتها، وهو ما يعطي إحساسًا بالعمق الحضاري للأمة وهويتها، وفي إظهار مكوّنات وحدتها وبلورة شخصيّتها الحاضرة.

التراث في اللّغة مستمد من كلمة (وَ رِ ثَ)، وتذكره المعاجم على أنّه مرادف لـ "الورث" و"الإرث"، وهي مصادر تدلّ على ما يرثه الإنسان. وقد فرّق اللغويون بين الورث حيث أنه خاص بالمال، والإرث حيث أنه خاص بالحسب. ولفظ التراث هو أقل هذه المصادر استعمالاً عند العرب قديمًا، فلم يستعمل القدماء أيًا من مشتقات (و رث) بمعنى الموروث الثقافي والفكري. إن الموضوع الذي تُحال إليه هذه المادة ومشتقاتها في الخطاب العربي القديم كان دائمًا المال وبدرجة أقل الحسب، أما شؤون الفكر والثقافة فقد كانت غائبة. ومع تقدّم العصر أصبحت كلمة التراث الكلمة الأكثر شيوعًا للدلالة على الماضي وعلى تاريخ الأمّة وحضارتها. هذا بالنسبة لحضور لفظ التراث في خطابنا القديم فيما قبل ما يسمّيه المؤرخون في العالم العربي بعصر النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر. ولكن كلمة التراث أخذت معنى أوسع مع دخول القرن العشرين، فتم إطلاقها على كل ما ينتقل إلى الأخرين سواء أكان معنويًا أو ماديًا.

أحتل التراث مركز الجدل والنقاش الثقافي في ساحة الفكر العربي اليوم. ودون التطرق إلى طبيعة الأسباب الظاهرة أو الخفية التي تقف وراء هذا الاهتمام المتزايد بمسألة التراث، يظل السؤال المطروح هو لماذا لم يتمكن المثقفون والمفكّرون وجميع القوى الفاعلة في الوطن العربي من تحقيق إجماع حول مفهوم للتراث، خصوصاً وأن الأمر يتعلّق بمصدر الهويّة القوميّة ومنبع الانتماء الحضاري ؟

ويبدو أن هذا النقاش قد اتخذ في غالبية الأحيان مسارات مختلفة إذا لم نقل متناقضة، تعدّت أحياناً حدود معنى التراث إلى التشكيك في جدواه وفعاليته في إخراج المجتمع من الأزمة الحضارية الراهنة، بالإضافة إلى التساؤل الذي يستهدف جوهر الهويّة التي يمثّلها التراث عمومًا وعلاقته بالحداثة والعصر. إن نظرة على ما كتبه غالبية المفكّرين والمثقّفين والسياسيين خلال هذه المرحلة حول هذه الإشكالية، تكشف عن عمق الأزمة الطاحنة التي

تتخبّط فيها مجتمعاتنا أفرادًا وجماعات، حكّامًا ومحكومين، مثقّفين وأميّين. فأبسط نقاط الاتفاق شبه معدومة، وتمسُّك جميع الأطراف بمواقف حزبيّة وطروحات أيديولوجيّة ومعتقدات إثنيّة، أخذت بعضها منحى النظريات والمناهج الفلسفية الغربية ولكن الغربية عن ثقافتنا.

وأصبح المفهوم في زماننا اليوم عن التراث يشمل جوانب الحياة المختلفة الثقافية والاجتماعية والخلقية السلوكية ونحوها، بينما تكون الحداثة والمعاصرة هي قلب التراث والأصالة جميعهم في توحّدٍ واندماج.

الحداثة

إن مصطلح الحداثة والترويج له على الساحة الثقافية العربية فرضته الضغوط الخارجية، وأما مواقف دعاته في مجتمعاتنا فلا تقل تأثيراً عن هذه الضغوط. وبسبب ما يحيط بهذا المصطلح من فوضى ومن غموض جعله في أحيان كثيرة أداة لفرض نموذج حضاري أو ثقافي رغم أنف مجتمعاتنا من خلال زرع مفهوم للحداثة الغربي، وجدنا أنفسنا ننجرف وراءها دون تبصر وفهم لإشكاليات تلك الثنائيات المفروضة علينا، لذا، علينا أن نخرج اليوم من هذه الحالة ... إلى عودة الروح وإلى تجديد الفكر.

ما يزال الفكر العربي لليوم أسير تلك الثنائيات الأصالة والمعاصرة، التراث والحداثة. معركة بدأت تدور رحاها في النصف الثاني من القرن العشرين، ويبدو أنها لم تحسم بعد، بل على العكس ماز الت تتجدد وتتجذر بين فريقين كل منهما في خندقه في مواجهة الآخر. ومن المفارقة بين الثنائيات هذه تنفتح الأسئلة الجديدة والقديمة على السواء، لتثير جدلاً دون الوصول إلى حلّ مرض لا لهذا الطرف أو ذاك. فأنصار الأصالة والتراث يرفضون كلَّ ما بدأ من مدارس جديدة في مختلف ألوان الإبداع منذ نهاية الخمسينيات حينما انفجرت موجة المغايرة من حيث الشكل والمضمون في كافة جوانب الإبداع .. أما فريق المعاصرة والحداثة فقد رفض أن يأخذ بكلّ الموروث كمعطىً مسلّمًا به دون مناقشة أو حوار، واستنباط ما هو صالح بعقلانية، وملائم لحتمية التطور التاريخي في سياق زمننا، على اعتبار أن بعض ما كان صالحًا قبل مئات السنين، معبّرًا عن الهوية العربية ليس بالضرورة أنه بات موقع المساعلة لا التسليم، ومن منطق الاستكشاف لا التقديس .. وهذا لا يعني رفض أراء القائلين بالوقوف على موقع المساعلة لا التسليم، ومن منطق الاستكشاف لا التقديس .. وهذا لا يعني رفض أراء القائلين بالوقوف على الأصالة والإفادة منها، لكن هذه الأصالة ومعطياتها الجديرة بالخلود بشكل معاصر ليخدم حياتنا وتوجّهاتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية التي إن لم ترتكز أساسًا على الإرث المعطى لنا من بطن التاريخ، ستصبح أفكارنا أشبه والإجتماعية والسياسية التي إن لم ترتكز أساسًا على الإرث المعطى لنا من بطن التاريخ، ستصبح أفكارنا أشبه بأعصان في الريح لشجرة ليست لها جذور تضمن لها الحياة ولكنها لا تنتج ثمارًا.

خلاصة القول أننا نستطيع بناء حداثتنا على موروثنا الثقافي والإبداعي في كافة المجالات على اعتبار أن الرؤى تتطوّر مع الزمن، والإبداع الحقيقي يسبق عصره. وأعتقد أن أجدادنا الضالعين في المعرفة والذين خلفوا لنا كنورًا اتكأت عليها المعارف والعلوم الغربية التي طوَّرت وتطوّرت مناهجها في الحضارة الغربية إلى الحداثة وما بعد الحداثة. فلماذا لا نعود إلى النبع من بدايات مصبّه بدلاً من أن نتبع الفروع. الأمر بحاجة إلى أكثر من وقفة وجهد فردي، بل إنه بحاجة إلى جهْد جماعي متوافق لاستنباط المصطلح العربي المتولم مع المعطيات الإبداعية الحالية، بل وأيضا إن هذا المصطلح المغيّب يخولنا الدخول إلى العصر .. إن من مظاهر المشكلة أو المأزق اليوم هو هذا النمط من التفكير حيث يدور في الغالب ما هو أعمّ حول إمكانية التوفيق بين الأصالة والمعاصرة .. التراث والحداثة.

ويتمثل المَخْرَج في أن نقف ضد هذه النزعة التوفيقية في مقاربة تلك الثنائية منهجيًا ومعرفيًا وتاريخيًا. لذلك تقتضي الضرورة أنه لا بد من العودة إلى المضيء من التراث والأصيل القديم في منابعه لنكتشف المعقول من المنقول، لندخل به إلى زماننا وحاضرنا ومشاكلنا الحادثة.

إزاء هذا الاضطراب في الفكر والواقع، من الطبيعي أن يعيش الإنسان العربي اليوم اغتر ابّا معر فيّا و زمنيّا إزاء تاريخ وتراثٍ يرادُ بعثه دون استقراءٍ أو فهم، وفي ظروف مغايرة. إن عجْزَ هذا الفهم الواعي عن الإجابة عن أسئلة الإنسان الراهنة وقضاياه الشائكة والمتداخلة، يؤكّد على أنهم خارج المكان والزمان يعيشون حاضر هم في ماضيهم، أو مستقبلهم بحاضر غيرهم . ونحن نكرّرُ ونؤكّدُ أن الحداثة لا تعني رفض ماضينا وتاريخنا والتنكّر له، بل هي تستلهم نسق

مـأزق ثنائيــات الأصالة والمعاصرة .. التراث والحداثة في الحفاظ على الهوية الثقافية

الابتكار والإبداع في تراثنا الحافل بالمفكّرين والفلاسفة الذين أسهموا في إنتاج الحلول لمشاكل عصر هم، لأن الحلول الأصيلة تُستمدُ من واقع المجتمع الحادث ومن التغيّرات والتطوّرات التي اختلفت عن مجتمعات الزمن الماضي...

وفي المحصلة، إن الأصالة الحقيقية تكمن في قلب الحداثة، فتراثنا يحيا فينا ولا نحيا نحن فيه. هكذا يسقطُ التضادّ وتسقطُ الحاجة والمحاولات للتوفيق بين الثنائيات. فالأصالة والتراث يتجلّيان ويكتملان في مجتمعٍ يعيش عصرَه وقيمَه المعاصرة والحداثية...

إن الأصالة تضيع في مجتمع لا يعرف كيف يعيش عصره إلا بمحاكاة ماضيه فيعيش مأساة تدهوره... والمعاصرة تغيب في مجتمع لا يعرف جذور ماضيه إلا بمحاكاة غيره، فيعيش حالة تخلفه... لولا الأصالة لما كان ثمة معاصرة وحداثة .. ولولا الحداثة لفقدت الأصالة معناها. فالأصالة بلا حداثة عُقْمٌ وجمودٌ وموتٌ ... والحداثة بلا أصالة ضياعٌ وتفستخٌ وانحلال. والرابطة أصيلة بين الأصالة والحداثة، ويمكن تلخيصها في مقولة لا حداثة بلا أصالة .. ولا أصالة بلا حداثة.

تمثّل مواقف المفكّرين العرب العقلانيين المعاصرين نبر اساً للرؤية الموضوعية وطوقاً للنجاة. فأولئك هم أصحاب مشروع وطني وقومي مجتمعين على هدف هو نقد العقل العربي وتجديد الفكر العربي، وتصحيح المسار الحضاري لمجتمعاتنا، والخروج من دائرة التخلّف والتبعيّة الفكريّة للغرب وما تفرضه من ثنائيات. فالقضية هنا ليست مجرّد تجديد التراث والمحافظة على الهُويّة الثقافية بالمفهوم الضيّق أو المسطّح، ولكن محوّرها التنويريّ هو التراث في ذاته من أجل ضمان استمرار الثقافة الوطنية والقومية، وتأصيل الحاضر ودفعه نحو التقدّم والمشاركة في قضايا التغيّر الاجتماعي والسياسي بشكل جذريّ، ويمكن أن نقول بشكل ثوري واع بواقعنا وماضينا ومستقبلنا.

ونؤكّد بوصفنا مهنيين ومثقفين ومهتمين معنيين بهموم مجتمعنا، وبوصفنا أيضاً مسؤولين عن ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا أمام التاريخ والأجيال القادمة، نؤكّد أن قضايا التراث، ومنه المعماري والعمراني والحضري، في مجتمعاتنا العربية أمستُ تمثّل اليوم ضرورةً ملحّةً وحجر زاويةٍ عند مفترق الطرق في عصر العوّلمة وفي ظل الهجمة الحضارية، وتأتي على أولويات الدولة والمجتمع والأفراد. ونتمثّل موقف التنويريين المعاصرين للخروج من حالة الحصار الثقافي منهجيةً عقليةً لبناء مشرو عنا لتجديد الفكر العربي كما رسمه كثيرون، ومن هؤلاء على سبيل الاستدلال زكي نجيب محمود ومحمد عابد الجابري.

ينتهي زكي نجيب محمود إلى القول أن العربي القديم قد تميّز بـ "العقـل" كلّما تأمّل أو نظر. ومن شأن هذه الوقّفة أن تردّ الأشتات إلى وحدةٍ تضمّها ضمّة المبدأ الواحد لنتائجه المتفرّعة أو العلّة الواحدة لسلسلة معلولاتها، فلا نبدأ من لقطةٍ حسيّةٍ إلى فكرة تكمن وراءها، بل نبدأ من تصوّرٍ عقليّ مجرّدٍ ثم نضع له التفصيلات هنا.

ويكون التواصل مع التراث فاعلاً ومعاصرًا لزماننا، وتكون الاستمرارية في النّسق لا في المحاكاة، وتقوم الحلقة الرابطة بين أمسنا ويومنا.

كما ينتهي محمد عابد الجابري إلى أن تجديد الفكر لا يمكن أن يتمّ إلا من داخل الثقافة التي ينتمي إليها بممارسة العقلانية النقدية وحدها في تراثنا، وبالمعطيات المنهجية لعصرنا يمكن أن نزرع في ثقافتنا الراهنة روحًا نقديةً جديدةً وعقلانيّة مطابقة للشرطيّن الضرورييْن لكل نهضة.

إن التراث ومشكلة المعتمدة في الفضاء الفكريّ العربي المعاصر مسألةٌ تؤول عند نهاية التحليل إلى "قضية النهضة و مشكلة العقلانية. وتمثّل تلك الأفكار في شموليّتها مع غيرها وفي تكاملها رؤية المشروع القومي لتجديد الخطاب العربي اليوم في كافة مناحي النشاط الإنساني، ومنها العمل المهني في مجال العمارة والعمران. فهي النبراس والمنهجية التي نفهم منها وبها مفهوم التراث المعماريّ والعمرانيّ. ومرجعيتنا في تحديد أهمية التراث ودوره في تغيير الحاضر الحادث ورسم المستقبل المنتظر وتكُمنُ في المنهجيّة العقليّة، وإيجاد تعريفٍ للتراث نجتمع عليه، يستوعب جميع الأطراف والقوى الفاعلة من مثقفين ومهنيين ومفكّرين، وذلك بأن نستبعد سلفًا كلّ ما من شأنه أن يشير خلافًا حول الثوابت أو ردّ فعلٍ لتصارع الإيديولوجيات، ليبقى الهدف هو تجديد الخطاب العربي المعاصر، والتوافق حول المفاهيم، ورفض النزعة في مقاربة التوفيق بين ثنائيات الأصالة والمعاصرة ..

إن التراث والحداثة منهجيًا ومعرفيًا وتاريخيًا، والتأكيد على أن التراث يشكّل حافزًا للمزيد من الدراسة والابتكار والتجديد والتقدّم الاجتماعي والتنمية الاقتصادية، ويلعب دورًا في تماسلُكِ البنية الاجتماعية، ويمنخ المجتمع والأفراد الثقة بالنفس، ويُسْهمُ في تعزيز الإرادة الوطنية، ويقوّي الشعور وعزيمة الأمّة باعتبار هما جزءًا من المهمّات الوطنية والقومية...

لا حضارة بدون تراث، لأنها ستصبح حضارة طفيلية ترتوي من تراث الآخر دون تراثها.

وهو مثل شأن الطفيليات التي تتقوّت مما تنتجه الأشجار الأخرى، فما إنْ تحبسَ عنها الأشجارُ قوتها حتى تندثر.

ينبغي أن تكون الحضارة أصيلة دون تبعيّة،

مستقلّة تملك جذورها العميقة وتمتلك حاضرها ومستقبلها،

إن المعاصرة والحداثة والأصالة والتراث في توحّد .. تصنعُ الحضارة وتحفظُ الهويّة وترتقي بالمجتمع.

مـأزق ثنائيــات الأصالة والمعاصرة .. التراث والحداثة في الحفاظ على الهوية الثقافية

المراجع

د. زكي نجيب محمود، قصة عقل، دار الشروق، 1993م.

د. محمد عابد الجابري، نقد العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، 1982م، 1986م، 1990م.

الأصالة والهويَّة في سياق التراث الإسلامي المعاصر إيجاد طرق لتسليم التراث الذي دمّــرته الحـرب بالثراء الكامل لأصالته

د. عمرة حجي محمدوفيتش

1. مقدمة

تتناول هذه الورقة المواقف المعاصرة من التراث الثقافي في السياقات الإسلامية، وتركّز على فهم الأصالة في الحياة ما بعد الصدمة والمؤلمة للتراث. وبطبيعة الحال، فإن المواقف من التراث الثقافي ليست هي نفسها، ولا تستند إلى المبادئ نفسها في السياقات الإسلامية جميعها، أي إن حالة التراث الثقافي في مثل هذه السياقات ترجع إلى نوع من الدعائم الوجودية والمعرفية الداخلية التي من الممكن أن تعزل أو تفصل تلك المجتمعات عن بقية العالم. إن طرح مثل هذه الادعاءات والتحقيق فيها وتأكيدها أو دحضها تتجاوز نطاق البحث المقدّم في هذه الورقة. لذا، سوف يتم هنا توضيح الأطروحات المقدّمة باستخدام المقالات القصيرة التاريخية والإثنوغرافية التي تشير إلى القواسم المشتركة المحتملة لكيفية اتصال الناس بتراثهم في بعض المجتمعات الإسلامية وربما معظمها، بالإضافة إلى بعض الطرق التي ينحرفون بها عن "المعايير العالمية" في حماية التراث الثقافي. كما أن التحليل والاستنتاجات للاعتماد على النظريات الدولية الواسع والمتطوّر باستمرار، من المتوقع أن يدمج الممارسات المختلفة القائمة على القيمة وأشكال استقبال التراث عبر مجموعة واسعة من الثقافات والسياقات المختلفة.

إن دراسة "معايير حماية التراث العالمي والمحافظة عليه" تتضمن بالتأكيد تحدّيات كبيرة في قابليّتها للتطبيق في سياقات إسلامية محدّدة، كما تتضمّن كيفيّة التغلب على قيودها، وأوجه قصورها عند تعزيز الحفاظ على الذاكرة الثقافية داخل المجتمعات المحلية. وفي الوقت نفسه، من الضروري لفت الانتباه إلى الإسهامات المحتملة للمبادئ الدولية لمقاربات محدّدة مستمدّة من المعرفة المحلية للمجتمعات الإسلامية وممارسات حفظ التراث - تلك الممارسات التي تلخص تاريخها واستجابتها للتحدّيات المعاصرة.

ومن السهل جدًا اقتراح أن الإجراءات المتخذة في السياقات الإسلامية ينبغي أن تهدف في النهاية إلى الحفظ المتكامل للتراث بما يتماشى مع سياسات الدولة الملائمة للسياق، والتي تنفّذها المؤسسات التي تموّلها الدولة مع خبراء الحفظ المعتمدين، والعمل مع الجامعات التي لديها مناهج دراسات في التراث مستنيرة، والأكاديميين، ومراكز نشر الأبحاث، مع توفيرٍ كاملٍ للمجتمع المحلّيّ كي يلعب دورًا نشطًا في جميع العمليات (اللجنة الاستشارية للمجلس الدولي للمعالم والمواقع - إيكوموس، 2018).

وبالرغم من ذلك، فإن تأكيد معايير محدّدة يتطلب:

- أ) بحثًا منهجيًا في تاريخ الحفاظ على الاستمرارية الثقافية وحفظ التراث المادي، مع التركيز على الممارسات المحليّة، و
- ب) التوثيق المنهجيّ للوضع الحالي للتراث الثقافي وممارساته المعاصرة في السياقات الإسلامية. بيد أن الإجراءيْن
 لا يزالان في طور النشوء.

وسوف أبحث في هذه الورقة، في كيفية ارتباط الناس في المجتمعات الإسلامية بتراثهم الثقافي عند معالجة الصدمة

المجتمعية الداخلية التي ترتبط في حدّ ذاتها بشكل أساسي بالذاكرة الثقافية المضطربة. في أوقات النزاعات المسلحة، والهجمات، والطرد، والاضطرابات الاجتماعية، والهجرة الجماعية، والتحوّل الاجتماعية والسياسيّ بعد الاستعمار، كلّها عوامل مازالت تؤثّر على عددٍ كبيرٍ من المجتمعات المسلمة. وتؤكّد الأبحاث المتعلّقة بحدوث الصراعات والنزاعات ومدّتها وحجمها، أن الدول ذات الأغلبية المسلمة كانت أكثر عرضة للتأثّر بالحروب الدولية والحروب الأهلية والصراعات المسلحة في عالم ما بعد الحرب الباردة.

.(Gleditsch & Rudolfsen, 2016)

كما تأثرت المجتمعات المسلمة ماديًا بمعظم حالات النزاع المسلح في البلدان ذات الأغلبية البوذية أو الهندوسية أو اليهودية أو الدينية الشعبية، فضلاً عن عدد كبير من النزاعات في البلدان ذات الأغلبية المسيحية. في أي من هذه الحالات، لا يمكننا فصل المعاناة الجماعية للسكّان - بالقتل والتمييز والطرد والهجرة - عن التدمير المنهجي لتراثهم الثقافي.

وسأقتصر في مداخلتي القصيرة على إعادة تأهيل التراث بعد الصدمة، والقيّم والأصالة، ودور المهنيين فيما يتعلق بالقضايا الأربعة التالية التي أعتبرها ذات أهمية خاصة خلال فترة ما بعد الصدمة الاجتماعية، ويتمثّل أبرزها في: استعادة الاستمرارية وتمكين المجتمع، والاستجابة للسياق، وتمكين منهج التراث النقدي الشامل.

يجد عدد كبير جدًا من اللاجئين والنازحين والمهاجرين أنفسهم معزولين، غالبًا بشكل دائم، عن منازلهم وأماكن انتمائهم، وهو ما يرمز إليه التراث ويجعله يتسامى بالنسبة لهم. ومن المؤكّد أن هذا هو الوقت المناسب لدراسات التراث كي توجّه انتباهها إلى هؤلاء الأشخاص وإلى كيفية إنشاء وسائل جديدة للذاكرة الثقافية ونشرها لخدمة بقائهم على قد الحياة

أثناء كتابة هذا المقال، وبشكل سريع للغاية نظرًا للطبيعة المفتوحة للموضوعات التي يعالجها، وجد موقع التراث العالمي لمدينة القدس القديمة والأقصى في قلبه، نفسه مرة أخرى موضوعًا مركزيًا في النقاش المستمرّ حول التراث. فقد ظلّ الفلسطينيون يعانون مع عمليات التحوّل وتدمير الذاكرة الثقافية لأكثر من سبعين عامًا حتى الأن. فهل ستؤدّي هذه العرقلة العسكرية المتجددة للطقوس الدينية وطرد الناس من الفضاء المقدّس، والاستيلاء على منازلهم والمناظر الثقافية التي تعكسها، إلى فتح عمليات جديدة وغير معروفة سابقًا وغير متوقّعة تمامًا لإسناد القيمة وممارسات إدامة التراث ؟ إن الأقصى والمدينة القديمة في القدس هما أكثر من مجرّد تراث معرّض للخطر لبعض المجتمعات أو حتى مجرّد موقع تراث عالمي معترف به رسميًا في موقع جغرافي معيّن.

فالقدس الثقافية ذات أهمية عالمية لاختبار استدامة القواعد التقليدية المنصوص عليها ومرونتها في المبادئ وفي المقاربات التي تركّز على الناس والتي تقوم على الحقوق. وهذا سبب آخر لأن معظم المقالات القصيرة المعروضة أدناه تأتى من البحث الإثنوغرافي في الأمثلة الفلسطينية، مع بعض المقارنة بأمثلة من البوسنة.

والهدف هنا هو توضيح ما يحدث عندما يتوقّف التراث المعماري عن العمل بوصفه مساحة. فالعملية التي يتمّ بموجبها بناء التراث - بموقعه المادّي ونسبه وأهميته المادّية ووظيفته - تصبح رمزياً، وهو الجوهر الذي يتعذّر الوصول إليه ماديًا لعالم ذات شخصية مشرّدة ومهجّرة، بينما تنسب القيّم التي يعبّر عنها الجميع إلى أجزاء أو تعبيرات غير ملموسة هي ظاهرة المجتمعات المصابة بصدمات نفسية. ونظرًا لأتّنا نتعامل مع ظاهرة بلا اسم، على الأقل في نظرية التراث، لذا أقترح استعارة مصطلح من الدراسات اللغوية لوصفها وتعيينها، اسم الشخصية الأسلوبية التي تأخذ جزءًا أو جزءًا من الكل، أما المصطلح فهو "المجاز المرسل".

2. الكلمات المرنة أو "المواقع قيد الإنشاء"في شبكة الدراسات التراثية

لا يمكن لأي نقاش معاصر حول "الأصالة في التراث الإسلامي" أن يتجاهل الإجماع شبه الكامل في الأدب، لا سيّما في أوائل القرن الحادي والعشرين، على أن مصطلحات "الأصالة" و "الإسلامية" و "التراث" تمرّ عبر إعادة تقييم مستمرّة لمعانيها.

فقد قام اللغوي والفيلسوف الألماني أوي بوركسون (1955) بصياغة "كلمات مرنة" للأشاره إلى عبارات في اللغة المعاصرة تأخذ معاني مختلفة اعتمادًا على السياق. إن كؤن هذه الكلمات شديدة الاستيعاب والتكيّف يميل إلى حجب المزيد من الكلمات العادية ذات المعنى الأكثر تحديدًا. هذه الكلمات المرنة ليست "مضمّنة في أي وقت أومكان معينيْن". وبدلاً من ذلك، فإنها "تختزل مساحة عملاقة إلى قاسم مشترك" و"من خلال عموميّتها غير المحدودة، فإنها تعطي انطباعًا بملء فجوةٍ وإشباع حاجةٍ لم تكن موجودة من قبل"، (بوكسون، 1955).

إن الجزء من النص الذي يتعامل مع تسمية النظام والخطاب والمفهوم هو بالضرورة استطرادي في حد ذاته، نظرًا للحاجة إلى التأكيد على أهمية تشكيلها الدلالي غير المكتمل للموضوع المركزي لهذه الورقة. ولاستخدام استعارة، فإن كلاً من "التراث الإسلامي" والأصالة لا يمكن اختراقهما من الناحية اللغوية مثل الضوء الأبيض المبهر الذي تصبح عناصره المكونة مرئية فقط بمساعدة منشور زجاجي. وإذا كنّا نأمل في الحصول على مفهوم موضوعي للأصالة أو "التراث الإسلامي" وبالتأكيد أي مفهوم علمي، فسوف يتعين علينا أو لا أن نكسرها في مكوناتها الدلالية الداخلية الفردية باستخدام منشور تكون هي جوانبه التاريخية والسياسية والجغرافية والمناخية، والسياقات الاقتصادية والاجتماعية والدينية والتنيية والتقليدية.

1.2. تحول نموذج "التراث الإسلامي" الثابت إلى "التراث الديناميكي والمتطوّر في السياقات الإسلامية"

إن البناء المعقد للخطاب حول التراث في السياقات الإسلامية يرجع لأسباب وجود عددٍ معيّنٍ من العمليات التكوينية المتطابقة الموجودة في العديد من البيئات المختلفة التي تنبع مع ذلك من تعدّد البر امج. ويؤكد مؤلفو الفصل الأخير من دليل أكسفورد للآثار الإسلامية الذي نُشر مؤخرًا هذا التعقيد في تحليلهم للمواقف من "الماضي الإسلامي" في كل من شبه الجزيرة العربية والإيبيرية والبلقانية.

وقد أشار لوبيز وآخرون إلى الاختلافات والتشابهات في التمؤضع الجيوسياسي الوطني الرسمي تجاه الماضي الإسلامي، والدور الذي لعبته في تشكيل الثقافة الشعبية والحياة اليومية، والاعتراف بها أو عدم الاعتراف بها في سياسة التراث العام المعاصرة. لوبيز وأخرون (2020) يجادلون بأن الخطاب حول التراث الإسلامي يميل إلى أن يكون مدفوعًا بالرغبة إما في تأكيد ذلك الماضي أو نفيه. وهم يعترفون بدمج "الماضي الإسلامي" مع الحاضر كمصدر معرفي مغير لتأكيد الهوية الوطنية والسعي لتحقيق مكاسب اجتماعية واقتصادية، في كل من البلدان العربية وفي البوسنة، مع رؤية أشكال التحرّر من الماضي في كل من أيبيريا وأجزاء أخرى من البلقان، وإن كان ذلك في مراحل مختلفة - استنصال هادف في البلقان، ولكن معاصر متقطع للوصول إلى بقايا طينية من ذلك الماضي في أيبيريا. يشرح المؤلفون الطرق التي تمّت بها عمليات إعادة بناء التراث، ليس في البوسنة فحسب، ولكن في بعض أيبيريا. يشرح المؤلفون الطرق التي تمّت بها عمليات إجاديًا. ولو أنها ضمّت المناطق المتنوعة تاريخيًا في آسيا، حيث وأجزاء من ساحل الجبل الأسود - فإن لها جانبًا إيجابيًا. ولو أنها ضمّت المناطق المتنوعة تاريخيًا في آسيا، حيث وأخراء من ستين بالمائة من إجمالي عدد السكان المسلمين في العالم (منتدى بيو حول الدين والحياة العامة، والنفي من خلال إثارة ظاهرة نفي "الحاضر الإسلامي" المستمر من خلال التدمير المنهجي للتراث والرد على هذا والنفي من خلال بناء توجّهات وخصائص جديدة للقيم.

إن التحليل الأكاديمي والتصنيف لأسباب وآثار العزلة الدائمة للناس والأشخاص عن التراث في إسرائيل والأراضي الفلسطينية المحتلة، يوضح أن عملية تدمير الذاكرة الثقافية لها مرحلتان: أولاً، تعميم كل تنوع التراث الفلسطيني في ظلّ تحديد التراث العربي، ومن ثم التفريغ المنهجي لجميع أشكال هذه "الكتلة" المفسرة من التراث من أي محتوى يسمح للتراث بخدمة بقاء الأفراد والمجتمع. وقد أدى ذلك إلى رد فعل في شكل إنشاء طرق بديلة لتخليد التراث، وإسناد القيم، وتقييم الأصالة.

إن التراث الثقافي ليس بناء ثابتًا. فالتراث يتعلق بالموارد من الماضي التي تنطوي على القدرة على التعبير عن القيم والمعتقدات والتفاهمات والعادات والتعبير عنها أو تأكيدها، وهي نفسها تعيش عملية تطوّر مستمرّة ومتواصلة. و يتألف مجتمع التراث من الأشخاص الذين يبنون بالفعل قيّم التراث وينسبوه إلى التعبيرات المادية وغير المادية للماضي، بناءً على المعتقدات والتفاهمات والتقاليد التي يربطونها به.

فهم ينشرون تلك التعبيرات كمصدر للبقاء والتقدّم في الوقت الحاضر، ويبذلون قصارى جهدهم للحفاظ عليها من خلال العمل المنظّم ومن ثم نقلها إلى الأجيال القادمة? وبالنظر إلى أوجه التشابه والاختلاف بينها في المعتقد والفهم والتقاليد، فهي مجزّاة كما هي في المشكال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي المعاصر لمجموعات الأغلبية والأقليّة والشتات المسلمة، يمكن أن يوجد شكّ في أن هناك حاليًا مجتمع للتراث الإسلامي العالمي أومجتمعات للتراث الإسلامي المتنوعة (راجع ريكو، 2017 ج). ويتمّ حشدهم بتحدّيات تطوير نظام حفظ التراث الثقافي غير الخاضع لنظرة خارجية لا تزال مستنيرة من قبل الأجندة الاستعمارية (راجع ريكو وإنجمان، 2019)، (مهدي، 2019).

فإن بعض التدخّلات في المجال الاستطرادي "الدراسات التراث الإسلامي" (راجع ريكو، 2017 أ، ب، ج، د، 009 ، 019 مهدي، 109 لوبيز وآخرون، 2020)³، تعبّر عن قبولٍ مشروطٍ للمصطلحات المرتبطة بالدعوة إلى التخصّص الأكاديمي في مجال "الفنون والعمارة الإسلامية"، في حين أن عددًا كبيرًا من الباحثين داخل هذا التخصّص يعتبرونه "تسمية خاطئة وغير عملية" (بلير وبلوم، 2003، ص 153)، "مضللًا وغامضًا"، (نيسيبوغلو، 2012)، أو "خطأ" (Grabar, 2010) بل حتى لو كان يمثل "الخيار الأكثر ملاءمة حتى الأن الاحدام (Blair & Bloom, 2003, p. 153)، في ظل عدم وجود بديل مناسب (Blair & Bloom, 2003).

يتقق مؤرخو الفنّ عمومًا على أن صفة "إسلامي" تمثل فخًا دلاليًا، إلى الحدّ الذي يستبعد فيه الفنّ والعمارة غير الدينيين أو غير المقدّس على نطاق أوسع. وبالنسبة للمعمّرين، الذين يحتل تيتوس بوركهارت مكانة بارزة بينهم، يعتبر الفنّ الإسلامي مجالًا فنيًا مميزًا على وجه التحديد لأن الخصائص التكوينية للمباني الفردية تخضع للمبادئ المقدسة العالمية، بغضّ النظر عن مكان إنشائها وزمانها (بوركهارت، 2009). بالنسبة لأتباع هذا المنهج، فإن السؤال الذي يطرح نفسه بالضرورة هو ما إذا كان يمكن تتبع حدود التراث الإسلامي على طول أي نوع من الخط التاريخي. من خلال اتباع مقاربة غائية لأولية الإسلام وبدائيّاته، يتساءل أكسويْ (2017، ص 67، 88) عن فصل أي فترة سابقة لتسميتها على أنها إسلامية. أي غائية إسلامية بشكل صحيح ستنظر إلى جميع أنشطة الحياة والمساحات أي فترة سابقة لتسميتها على أنها إسلامية، بحيث لا يمكن للمرء أن يؤسّس حدود مجال الموضوع أو نطاقه على المعايير الوظيفية أو بوع الكائن الذي تتم دراسته (بلير) وبلوم، 2003). و علاوة على ذلك، فإنه من الواضح أن الأفراد الذين ينتجون (أو أنتجوا) الفن الإسلامي، كما هو محدّد في النطاق التقليدي للتخصيص الأكاديمي، هم ليسوا بالضرورة مسلمين، أي أكثر من أولئك الذين قد يكونوا تلقوها أو أفادوا منها أو استخدموها (نيسيبوغلو، 2012).

عند وضع مثل هذه التحديات في جانب واحد، يصبح هناك إجماع على أن الثقافات المرئية المتنوّعة والمتعدّدة الأوجه المجمّعة تحت هذا المعيار الإشكالي تنتمي معًا بطرق عديدة، سواء كان المرء يفضل التأكيد على الوحدة، أو التنوع، أو مزيجًا من الاثنين معًا، والتي يتم تحقيقها بشكل ملائم من قبل مجاز من "الوحدة في التنوّع"، (نيسيبوغلو، 2012). وسوف تستمر مشكلة التسميات حتى يتم تقديم بديل مقبول وسيستمرّ العديد من مؤرخي الفنّ والمنظّرين في استخدام المصطلح المتحجّر وغير المناسب "الفنون والعمارة الإسلامية" في ظل الفهم الضمني بأنه مع ذلك يغطي كل شيء ويشمل الجميع (بلير وبلوم، 2003).

لم تفلت در اسات التراث الثقافي من الفخاخ التي يطرحها هذا الجدل حول الأسماء والامتلاء الدلالي، والأطر المعرفية التي تنطوي عليها. فقد اكتسبت الطبيعة غير المحسومة لمسألة إنشاء اسم مناسب وربما حتى سمات محدّدة لحقل "التراث الإسلامي" الاسلامي" التراث الإسلامي" في الخطاب الأكاديمي، حيث باتت بشكل متزايد على أنها صفة فريدة من نوعها وصفة بديهية، ولا تقلّ صعوبة عن كل ذلك (ريكو، 2017 أ).

وتعتبر ممارسات التراث الثقافي في السياقات الإسلامية شديدة الدقة عندما يتعلق الأمر بالتقييم والحفظ والصيانة والإدارة، أو كيفية استخدامها لتشكيل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية. ويتم حفظ هذا التراث في الوقت الحاضر من خلال ممارسات التراث العامي من قبل العديد من المجتمعات التراثية المتداخلة التي تعيش في سياقات يتم التعبير عنها ثقافيًا كمسلمة ولكنها لا تتكون بالضرورة من المسلمين فقط. إن أي إصرار على الوحدة أو الطبيعة الخاصة لممارسات التراث المحلي الإسلامي يخاطر بالانزلاق إلى جو هرية سهلة للغاية، ليس أقلها بفضل استشراقها الداخلي المفاهيمي (ريكو، 2017 ب، ص 211).

2.2 الأصالة - مصطلح ذو معنى مطّاط

لا يوجد شيء غريب في الأسئلة المتعلقة بالأصالة والسلامة التي ظلّت إلى حدّ كبير على هامش النقاش الذي يدور حول ممارسات التراث الثقافي في السياقات الإسلامية. وهناك العديد من الأسباب التي تجعل أشكال حماية التراث الثقافي، التي تعدّ بديلة للمقاربات المعيارية الدولية، التي تعتبر الأصالة محدّدًا أساسيًا لها، يمكن العثور عليها في السياقات الإسلامية. ويواجه مفهوم الأصالة بحدّ ذاته تحدّيات تتعلق بالأشكال السائدة غير المادية لإسناد القيمة وطرق إدامة التراث في السياقات الإسلامية (ريكو، 2020، ص 695)، حيث يتم تفضيل الهوية على الأصالة والجوهر، والمادة، وحتى الشكل وهي ليست بالضرورة حاملة للهوية.

وبالإضافة إلى توفير أساس ثقافي تقليدي لأساليب تسليم المعرفة والذاكرة، تؤثر هذه الممارسات بشكل كبير على الواقع الوجودي للتراث الذي عانى من الدّمار الشامل والذي وضع مجتمعه التراثي على مسافة مادية من تراثه المبني. ويتم في مثل هذا الواقع أيضًا، تحدّي مفهوم السلامة. كما لا يمكن تبرير فقدان التراث في العديد من مشاريع الترميم غير الملائمة بأي شكل من الأشكال بالانقسام بين "المعايير العالمية" وتقاليد حماية التراث المحلي المشروعة و عدم قابلية التوفيق بينها. وتختلف التحديات، ولكن ينبغي النظر في الاستجابات لها في إطار ممارسات التراث المستدام.

إن ظاهرة تدمير الطبقات التاريخية للمدن المقدسة في مكة المكرّمة والمدينة المنورة من خلال مشاريع لتكييف المرافق لملايين الحجاج (أنغاوي، 1980)، على سبيل المثال، مختلفة تمامًا من حيث أسبابها وسياقها وعواقبها، عن تدمير ضريح القرون الوسطى في آسيا الوسطى، كما أفاد هيلنبراند (2021). ولكن كلا المثالين يوضحان الحاجة إلى تعزيز المقاربات تجاه أوعية القيم وحاملي الأصالة. لقد رسم هيلينبراند خريطة لتدمير التراث الإسلامي في العصور الوسطى في آسيا الوسطى من خلال الترميم، ولفت الانتباه إلى الظواهر المشتركة في كثير من التراث الإسلامي حول العالم، غالبًا بسبب الصراع أو الاضطرابات الاجتماعية. وهو يدعي أن أعمال الترميم في العديد من المباني التي تعود إلى العصور الوسطى بعد سقوط الاتحاد السوفياتي ساهمت في التدمير الشامل لقيمتها الجمالية والفنية والوثائقية وفقدانها للأصالة.

وهو يصنّف حوافر هذا التدمير ويقسمها إلى ثلاثة مجالات:

- 1) ضغط الأجندات السياسية لتسخير المبانى في تجديد أو بناء هويّات وطنية جديدة،
- 2) تحقيق الدخل من الأثار من خلال السياحة، وهو أمر أكثر ربحًا كلما كانت الآثار أجمل،
- 3) القصور العام في السلطات و المؤسسات المستقلة عن السياسة ورأس المال. وقد أدى ذلك كله إلى الاستخدام الليبر الي للخرسانة، و تمييز المعالم الأثرية بالتعبيرات الوطنية، و التدخّلات الحديثة، و التوسّع الحضري، و التفسيرات التي تنمّ عن الجهل.

والظواهر المنتظمة الثلاث تكشف عن هذه الخسارة في القيمة، كما يراها هيلينبر اند بوضوح: استبدال الزخارف الدائمة بزخارف غير دائمة (على سبيل المثال، تدمير واستبدال المواد الأصلية والزخرفة البلاستيكية بمعالجات مطليّة غير دائمة وغير مؤمّنة)؛ تدمير الزنجار السطحي الذي يزوّد المواد بظاهر جديد؛ والإفراط في الترميم. (هيلينبر اند، 2021)

1.2.2. من القاعدة المتميزة إلى المفهوم المطاط

لقد منَّلت كلمة أصالة لغزًا لمنتديات التراث العالمي سواء على المستوى الأكاديمي أو مستوى الخبراء وصنّاع السياسات منذ اعتماد ميثاق البندقية. فالفقرة الأولى من ديباجتها تنتهى بالتزام مشهور هو:

"إنه لمن واجبنا أن نسلمها بكل ثراء أصالتها". وقد تمّ التعبير عن هذا الالتزام نيابة عن المتخصّصين في مجال التراث. وتشير كلمة "واجبنا" إلى واجب المهندسين المعماريين والفنيين، بينما تشير كلمة "نسلمها" إلى "المعالم التاريخية"، وهو المصطلح المستخدم في الميثاق.

تقدم الوثيقة "الأصالة" بوصفها شرطًا للانتقال الحقيقي للقيّم التاريخية من الماضي إلى المستقبل، وبالتالي، على أنها هي بالذات ما يحدد معايير الحفظ، "بحيث لا يزيّف الترميم الأدلّـة الفنيّة أو التاريخية" (المادة 12). ولم يتم تعريف الأصالة بشكل صريح في الميثاق، لكن الخبراء الثلاث والعشرين الذين عملوا على المسوّدة نسبوا قيمتيّن اثنتيّن إلى

المعالم والأثـار -أو لا القيمة التاريخية وثانيًا القيمة الفنية. وقد تمّ التعبير عن قياس هذه القيّم حصريًا في الموادّ وفي الشكل. ومع ذلك، كان هناك تلميح إلى أن الاختلافات في الثقل النسبي لهذه المبادئ قد يكون ممكنـًا في ظلّ سياقات معيّنة، مع ملاحظة أن "كل بلدٍ مسؤولٌ عن تطبيقِ الخطةِ في إطار ثقافته وتقاليده".

ومنذ عام 1964، تم تحدّي معنى "الثراء الكامل لأصالتها" في مختلف السياقات الإقليمية والثقافية والمجتمعية والتاريخية وموضوع الحفظ. وهكذا تم توسيع تداولها بشكل كبير من خلال محتوى مجموعة غنيّة من النظريات، لا سيّما تلك النظريات المرتبطة بديناميكية التعايش والممارسات التراثية التي تمّت عبر التقاليد المتنوّعة. وقد نتج عن ذلك العديد من الوثائق والمنشورات البرامجية للسياقات الأسيوية والأفريقية والأميركية وأوروبا الشرقية. وتخلص كل هذه الوثائق إلى أن الأصالة ليست مطلقة، وأن القليل فقط من القيم هي قيّم عالمية، وأن تصوّر ها يختلف باختلاف السياق الإقليمي.

وبدلاً من الحالات العامة للفنات المقدّمة في الوثائق الدولية المعمارية حول حفظ التراث الثقافي، سمحت المناقشة حول الأصالة بمقارنة الأطر المعرفية والأنطولوجية، ومقارنتها، وتخصيبها المتبادل، واستكمال المفهوم بروابط دلالية مع التطوّر المستمرّ. إن فكرة التراث الثقافي وكميّة المناقشات الأكاديمية والفلسفية ونو عيّتها و عددها، والخبرة حول الأصالة والهويّة وكيفية ارتباطها، والقيم وصفاتها، والفئات المتغيّرة والمطلقة، فضلاً عن العدد الهائل من النصوص البرمجية التي تضع الأصالة في قلب إضفاء الطابع التقليدي على حماية التراث الثقافي التي أعقبت ميثاق البندقية، لا Stovel, 2008)

و قد حلل على سبيل المثال (.Nezhad et al، ص 9-96, 2015) ، كيف وضع الخطاب النظري التراكمي الأصالة في قلب أشهر الوثائق البرنامجية الدولية الأربع عشر التي تم إنتاجها بين عامي 1964 و 2011.

ربما كان لمؤتمر نارا حول الأصالة فيما يتعلق باتفاقية التراث العالمي، الذي عقد في مدينة نارا اليابانية في نوفمبر 1994، تتويجًا للاجتماعات المواضيعية التي عقدت في ذلك العام، التأثير الأكبر على المواقف تجاه مفهوم الأصالة. (منظمة اليونسكو، 1994). وتؤكد وثيقة نارا حول الأصالة على أن المصادر التي يمكن من خلالها تحديد قيمة مواقع ومباني ثقافية معيّنة وتقييم أصالتها تعتمد على السياق الثقافي والوقت وبالتالي فهي عرضة للتغيير.

ويجادل يوكيليتو عام 2006 مقدمًا رأيه الذي ينص على أن مفهوم أن تكون أصيلًا يشير إلى الصدق، سواء من حيث وقوفك بمفردك كإنسان بشري مستقل أو من حيث كونك دليلًا حقيقيًا على شيء ما. ونظرًا لأن الحقيقة هي مفهوم مركزي الخطاب سواء الأكاديمي أو الديني، لا يمكن للمرء أن يفصل تعريف الأصالة عن إطار عمل لتحديد الحقيقة المطبّقة من قبل المجتمع المحدد مع التراث الثقافي المعني. فمثل هذا الإصرار على "الأصالة الموضوعية" أو "الأصالة الثانية".

.4(cf.Su, 2018)

إن معيار الأصالة لا يمكن ترجمته على هذا النحو لبعض الثقافات. فخلال مناقشة مبكّرة حول التراث والأصالة، أشار الأستاذ عز الدين باشاوش إلى أن اللغة العربية لا تحتوي حتى على كلمة للأصالة. وقد أدلى السيد نوبو إيتو بملاحظة مماثلة حول إمكانية ترجمة هذا المفهوم إلى الثقافة اليابانية، (Jokilehto, 2019, p.58).

وكان لابد من تعديل المفهوم ليناسب أنظمة المعاني الحالية - الثقافة واللغة والدين - للعالم الناطق باللغة العربية (أي، 25 دولة أساسية، مع ستة بلدان إضافية حيث اللغة العربية فيها هي لغة أقلية معترف بها). وقد اعترفت لغات أخرى بتعبير "الأصالة" بوصفها كلمة مستعارة، وفي الغالب كلمة طيعة ومرنة، لذا فإن ترجمتها لن تؤدي إلا إلى تقييد معناها. فالبوسنيون والكرواتيون والصربيون وأهل الجبل الأسود يستعملون كلمتين لترجمتها وليس كلمة واحدة، وللكلمتين معان مختلفة واحدة تعني الأصالة والثانية تعني الإخلاص.

يعتمد التعريف المعاصر للأصالة الوارد في وثيقة نارا 20+ (2014) على الاعتراف بالمرونة الدلالية: "جودة مشروطة ثقافيًا مرتبطة بمكان تراثي أو ممارسة أو كائن ينقل قيمة ثقافية؛ يتمّ تعريفها على أنها ذات مغزى التعبير عن تقليد ثقافي متطور؛ و/ أو أنها تثير بين الأفراد الصدى الاجتماعي والعاطفي لهويّـة المجموعة".

3.2.2. الأصالة والهويّــة - مقتطفات تاريخية من الممارسات التراثية في السياقات الإسلامية

زوج من المقالات القصيرة التاريخية، التي أستخدمها هنا، محددان للغاية لدرجة يصعب معها الادعاء بأنها ينبغي أن تكون بمثابة قواعد أو معايير، حتى في الفترة الزمنية التاريخية الخاصة بها، أوبمثابة مقالات تقدّم إرشادات ملزمة لإنشاء مثل هذه المعايير اليوم. وكأمثلة مهمة، فإنهما مع ذلك توضحان الطبيعة الديناميكية لبناء التراث، فضلاً عن تتوّع إسناد القيمة بمرور الوقت، مع إمكانية تشكيل ممارسات صيانة التراث المعاصرة في السياقات الإسلامية. وداخل الإطار التقليدي الإسلامي، فإن التراث الثقافي ليس ثابتًا كما أنه قابلٍ للتغيير، إذْ له حياة اجتماعية خاصة به، ويستجيب للوقت بطبيعة دائمة التطور.

لقد تطوّر نظام كامل للمسؤولية المجتمعية التقليدية لإدارة مواقع التراث العمومية وصيانتها بانتظام بمرور الوقت، حيث يمثل "الوقف" الحالة الأكثر تفصيلاً. وتتضمن المحافظة على الأماكن المقدّسة وإدارتها، وبخاصة الحرم الشريف في مكّة المكرّمة، شبكة طويلة الأمد من الإجراءات وأصحاب المصلحة والمستفيدين وأنظمة التمويل، بالإضافة إلى إطار زمني منسجم مع التقويم المقدّس.

في دراسة حديثة صدرت عام 2020، يلقي الأستاذ سيمون أوميرا نظرة على القيّمِ المعمارية والفنية للكعبة المشرّفة، والتي لا تنفصم عن أهميتها المقدّسة واستخدامها. لقد أسس الأستاذ أوميرا مناقشته التفصيلية للأبعاد والنسب والمواد على البحث في المواضع الكونية وعلى الكونية وعلى نسب الكعبة (كينغ، 1985).

وعبر ستة فصول، يؤكّد على الإسناد الرئيسي القيّم في الفضاء وعبره:

- 1. القِبْلة، أي مكان التوجّه أثناء الصلاة؛
- 2. المحور في النطاق المكانى للعالم الإسلامي؛
 - 3. المبدأ المعماري المدمج في العالم المادي؛
- 4. الغرض من طقوس الطواف خلال تأدية شعائر الحج؟
 - 5. فضاء الاتحاد الروحى؛
- 6. حاوية الفراغ، التي تتواجد فيها القوة المتحرّكة أحيانًا (أوميرا، 2020).

أما الأطروحات الواردة في الفصل الثالث فهي مثيرة للاهتمام بشكل خاص لأغراضنا في هذه الورقة. فمن خلال الدوران الشعائري حول المبنى، يقوم الناس بتحريك الهيكل الحجري خلال كل ساعة من كل يوم. أما الوقت الوحيد الذي يتوقف فيه هذا الطقس التكويني المكاني فهو اليوم التاسع من شهر ذي الحجة من التقويم الإسلامي، عندما يكون المبنى مفعمًا بالحيويّة من خلال عملية استبدال الواجهة المصنوعة من القماش أي الكسوة (أوميرا، 2020). فحقيقة أنه ينبغي على كل مسلم في العالم أن يكون متوجهًا بشكل مستمر أثناء الصلاة نحو الكعبة المشرّفة، يؤكّد ببساطة وجهة نظر الأستاد غرابار (2010) بأن "الناس يصنعون المباني. [...] والاستخدام المعاصر للمباني من قبل الناس جعلني أفهم المباني القديمة بشكل أفضل".

حتى لو كان الهيكل الحجري للكعبة يدل على الثبات والاستدامة، إلا أن الحقيقة تؤكّد أنه تم تدميره وإعادة بنائه عدة مرات. هذا هو السبب في أننا يجب أن نناقش الكعبة ومسألة تدميرها وإعادة إعمارها بشكل دوري، فهي جزء من الماضي، عندما ننظر في مفهوم الأصالة في الممارسات التراثية ضمن السياقات الإسلامية، لا سيّما بالنظر إلى التغييرات التي لا رجعة فيها في المشهد الثقافي في مكّة المكرّمة في العقود الأخيرة.

يوضح أوليغ غرابار أهمية التحقيق في مصادر الحرم في مكّة المكرّمة لفهم تاريخ الفنّ الإسلامي المبكّر: "نظرًا لأهميته الكبيرة للمسلمين، يمكن للحرم الشريف في مكّة المكرّمة أن يكون مثالًا لهذا النوع من التحقيق، وأيّا كان، ينبغي أن تنطبق الفرضيات أو الاستنتاجات التي يمكن التوصيّل إليها بشأن مكّة المكرمة على المباني والأماكن المقدسة الأخرى أيضيًا". (غرابار، 2005).

هل ينطبق هذا الشرح على دراسات رؤية المسلمون لعمليات وراثة التراث والحفاظ عليه؟ يُعلمنا موقف المجتمع

الموروث تجاه الكعبة المشرفة باستمرارية المُلْكية الجماعية لذلك التراث: حقّ جميع أعضاء المجتمع الموروث في الوصول إليه؛ كيف تُنسب القيّم ولماذا؛ حفظ أوعية تلك القيم ونظام الحكم والعلاقات بين أصحاب المصلحة والمستفيدين.

ويقدم المؤرّخ الأزرقي وصفًا تفصيليًا لكيفية بناء المسجد الحرام وتوسيعه وتغييره على التوالي، بينما بقيت الكعبة المشرفة على حالها في وسط ذلك كلّه (غرابار، 2005، ص 64-66)، أو بالأحرى إن التغيير الوحيد الذي حدث في شكلها كان خلال فترة وجيزة بعد الحريق الذي نشب عام 684 عندما هدم عبد الله بن الزبير بن عوّام (692-624) بقايا الجدران وأجرى بعض التعديلات. ولكن بعد ثماني سنوات، أعاد الحجاج بن يوسف الثقفي (692-624) المبنى إلى حالته الأصلية: "جمع بين العلماء الذين عرفوا ترتيبه القديم، وغيروا تعديلات عبد الله بن الزبير وأعادوا ذلك المبنى النبيل إلى شكله القديم، فتمت إعادة كل حجرٍ مباركٍ إلى مكانه (كرين، 1987 ص. 55،54).

ويوضح أوميرا في كتابه طبيعة الكعبة المشرّفة كمبدأ معماري، حجر الأساس للعالم المادي، الذي يؤمّن مؤسسيه استمراريته. مشيرًا إلى تقليد المغزى الخارق لأسس قاعدة الكعبة، وهو يدّعي أن الكعبة هي في الواقع بناء هيكلي تحتى. إذ يمكن هدم الجدران طالما بقيت الأسس سليمة.

والشيء الوحيد المتبقّي من المادة الأصليّة للكعبة المشرّفة هو على الأرجح الحجر الأسود، وهو الحجر الذي قيل إن إبراهيم وقف عليه أثناء تشبيد المبنى (مقام إبراهيم)، وأسسه (أوميرا، 2020، ص 63-79).

في تقليد مشهود له جيدًا بتجديد الكعبة المشرّفة عام 605، وبينما كان الرسول محمد لا يزال على قيد الحياة، نجد أنه كلّما حاول أي شخص إزاحة الحجر عن أساساته، تعرضت مكّة المكرمة لزلزال قوي (يصف الأزرقي): ظاهرة مماثلة أثناء التدمير عام 684):

"و عندما هبطت جميع الجدران حتى وصل إلى الأساسات التي وضعها إبراهيم، عثروا على أحجار كبيرة مخضرة اللون، شكلها مثل سنِنام الجِمال موضوعة جنبًا إلى جنب. فوضع رجل مخلاً أي رافعة بين اثنين من هذه الحجارة لرفع أحداها؛ ولكن في أول تحرّك للحجر حصلت هزة أرضية ضربت جميع أنحاء مكّة المكرّمة، فاعتبروها علامة على أنه ينبغي عليهم ترك هذه الأساسات دون أي تحريك". (لينغز، 1983، ص 42)

ويلاحظ غرابار، فيما يتعلق بما يمكن وما لا يمكن تغييره في ممارسات ضمان الاستمرارية، أنه لا يوجد شيء في قبّة الصخرة المشرفة يعود في الواقع إلى القرن السابع. ووفقًا له، فإن كل شيء، من الخارج والزخارف إلى الأسقف، باستثناء جزء من الفسيفساء، يعود إلى القرن العشرين، لكنه مع ذلك يستنتج أنه مبنيّ منذ عام 691. وعند مناقشة التحدّي الفكري الذي ينطوي عليه هذا التناقض في الهوية، والذي يُشار إليه أحيانًا على أنه تناقض قارب تيسيوس (بلوتارك، 75 قبل الميلاد)، يلفت غرابار الانتباه إلى الطبيعة الخاصة لحامل الأصالة في المباني التي تكمن قيمتها في طابعها المقدّس.

وهو يوضح أن المباني المقدّسة لا تخضع لنفس معابير عدم التجديد مثل الأعمال الفنية - حيث يمكن إعادة إنتاج الرموز الأيقونية وتبقى كما هي، بينما لا ينطبق هذا على لوحة لموناليزا (غرابار، 2010). وفي تحليله لوجهات نظر المسلمين حول تدمير الكعبة المشرّفة، يشير أوميرا إلى مبدأ مثير للاهتمام للنقاش حول الأصالة: "الكعبة المشرّفة هي نسخة طبق الأصل من الأصل السماوي، والتي لا تخضع للتدمير. ولا يؤثر تدميرها وإعادة بنائها على أصالتها أو على الطبيعة الأصلية للنموذج الأولى غير المتغيّر. فالشكل الذي يُعاد بناؤه هو دائمًا نفسه، في المكان نفسه، وفي الاتجاه نفسه، لأنه دائمًا نسخة من الكعبة السماوية".

لم يكن هناك بحث منهجي كافٍ في عدد كبير بما يكفي من الحالات الفردية مما يسمح لنا بالتعميم على الظاهرة، وهي العلاقة بين البنية التحتية والبنية الفوقية، والتي أكد عليها أوميرا في حالة الكعبة المشرفة، لكنه ليس من غير المألوف فيما يتعلق بترميم المساجد والتكيّات أو الكنائس الأرثوذكسية الشرقية في البلقان، على سبيل المثال، في فترة ما قبل العصر الحديث أو أوائله.

فالطبيعة غير المتغيّرة والمحرّمة للموقع هي شرط مسبق للاستمرارية. وليس من غير المألوف إعادة بناء المباني مع الاحتفاظ باسمها والنظر إليها على أنها نفس المبنى، إذا ظلّت الأساسات أو المواقع كما هي. إن الرأي القائل بأن أسس الكنيسة أو المسجد ليست موقعًا أثريًا بل مكانًا مقدّسًا له استمرارية ضمنية / كامنة من حيث التراث الحيّ، في ظلّ الظروف الحاليّة لتسييس الأديان وازدهار القومية في المناطق التي كانت في السابق يو غوسلافيا والاتحاد السوفييتي وبقيّة ما يسمّى الكتلة الشرقية، بات أداةً لسياسات الهويّة وإحياء القومية. ويتمّ تقديم بناء كنائس ومساجد جديدة بأسلوب تاريخيّ انتقائيّ، مع مناشدة أصالة الأسس، بشكل عام من حيث إعادة بناء التراث. (Hadžimuhamedovi, 2014).

توضح هذه الظاهرة الطرق التي تمت بها خيانة التقاليد، بما في ذلك النهج التقليدي لإسناد القيم في التراث المبني. وقد نستنتج من هذين المثالين الرئيسيين لفهم ممارسات حفظ التراث الإسلامي، أن الأصالة تعد أقل أهمية من الهوية لتشكيل التراث في السياقات الإسلامية. وقد تركّز الدراسات المستقبلية بشكل مفيد على تصنيف العوامل التي تحدد ما إذا كان لمبنى معيّن شكل أو شكل غير قابل للتغيير، بحيث لا يمكن الحفاظ على قيّمه إلا بهذه الطريقة، بينما قد يتمكّن الأخرون من الاستمرار في التعبير عن تلك القيّم والهويّات، لأنها تخضع مع ذلك لعمليات التغيير المستمرّ.

أما المقالة التاريخية القصيرة التالية فتتعلق بترميم الكعبة المشرّفة الذي تمّ في القرن السابع عشر. وتوضح أن مناقشة موضوع الأصالة في ممارسات حفظ التراث في المجتمعات الإسلامية تختلف اختلافًا كبيرًا، وذلك اعتمادًا على الفترة التاريخية والسياق الاجتماعي. ففي مذكّرات السيرة الذاتية للمهندس محمد آغا، التي كتبها في بداية القرن السابع عشر من قبله معاصره وشريكه جعفر أفندي، يولي المؤلف اهتمامًا خاصمًا بمقاربة موضوعه المعقّد للتدخلات التي كان من الممكن أن تؤثّر على الجوهر المادي للكعبة (كرين، 1987).

يسجّل جعفر أفندي مناقشة مستغيضة جدًا من قبل العلماء الذين قاوموا التغيير استنادًا إلى أنه قد يضرّ بقيّم المبنى، وخلصوا إلى القول: "إن وضع أيديهم على هذا المبنى المبارك سيكون اعتداءً. [لكن] كيف يكون اعتداء على ذلك المبنى المبارك لربط دعامة بالخصر اللطيف لذلك المكان النبيل؟" (كرين، 1987، ص 56)

كانت هذه المناقشات حول السماح بإمكانية وضع الأيدي على جدران الكعبة مليئة بالاستعارات والرموز أو شرعية مثل هذا العمل، كما هو الحال في وصف النظام المستخدم لتدعيم الجدران، ولكنها أيضًا مناقشات غنيّة بالمعلومات بشكل كبير عن المبادئ والحلول، ومناهج الممارسات التراثية المستنيرة والتي يمكن تلخيصها على النحو التالى:

الحدّ الأدنى من التدخّل الضروري، مع تدخلات قابلة للعكس وغير متداخلة، وكل عنصر جديد مميّز بوضوح عن الأصل، وذلك فقط باستخدام المواد التي لا تضرّ بالجدران الأصلية لأنها قد تدهورت.

إن العبارة المتعلقة بعدم مقبولية "وضع الأيدي" وبعض الاستعارات والمقارنات المستخدمة في المناقشات من قبل العلماء تكاد تتطابق مع العبارات والأشكال الأسلوبية التي استخدمها جون راسكين في نهاية القرن التاسع عشر.

بالإضافة إلى العبارة التي يتم الاستشهاد بها كثيرًا "ليس لدينا أي حق في لمسها". (راسكين، 1989، ص 197)، نجد أوجه تشابه متعددة في التعبير، كما هو الحال على سبيل المثال، في تعبير "الجواهر المباركة [الحجارة التي بنيت منها الكعبة المشرفة" (كرين، 987، ص 53، 54) وتعبير راسكين الذي يقول فيه ، "عدوا حجارتها كما لو كنتم تعدون حجارة جواهر التّاج (...)" (ص. 196)، وما إلى ذلك.

بالإشارة إلى مشروع بدأ قبل خمسة وعشرين عامًا من قبل المعمار سنان، يصف جعفر أفندي إجراءً للتخطيط الدقيق، وتحديدًا أوليًا لحالة المبنى، ومسحًا تفصيليًا وتقييمًا، ووضع خطط فنيّة غير متداخلة وقابلة للعكس، ستضمن تثبيت الجدران القائمة وتأمين المشاركة العامة في التدخّل:

"صنعت عدة قضبان ربط متناظرة ومتناسبة جيّدًا وأرصفة مربّعة من الفولاذ النقي وفقًا للخطة المذكورة أعلاه والشكل المذكور أعلاه. والشكل المذكور أعلاه. وتمّ بعد ذلك وضع أوراق الذهب والفضة على قضبان الربط والدعامات المذكورة أعلاه. (...) وبعد هذا كلّه، أي بعد أن تمّ الانتهاء منه، وتمّ إعداده وتجهيزه، تمّ نقله إلى البلد المفتوح والجذاب خارج أدرنة (...) حتى يكون صاحب الجلالة باديشا المحظوظ، (...) والوزراء والمشاهير ووزراء الدولة، وسعادة سيف الإسلام، وكبار المشايخ، و (...) [رئيس القضاة العسكريين] وغير هم من العلماء والأساتذة والمعلمين [41] والسفراء الأجانب، ومجموعهم يفوق المائة ألف شخص، على استعداد لتكريمهم" (كرين، 1987، ص 57).

وقد تسبّب النقاش الذي كان جاريًا في الأوساط الفلسفية والدينية في تأجيل الترميم حتى تاريخ الرابع من شهر آذار/ مارس من عام 1612، بسبب الخطر الذي قد يلحق بأصالة المبنى. وفي صباح يوم الأحد ذاك، وبعد استعدادات دقيقة، وضعَ الحرفيّون أيديهم أخيرًا على الكعبة. ولدينا وصف مفصلٌ للتدخّل ليس فقط في كتاب "الرسالة"، ولكن أيضًا في كتاب "زبدة التفاريح" لمصطفى بن إبراهيم، الذي كتب تحت اسم مستعار هو "ساري".

وقد أمر بهدم الألواح الفاسدة الموجودة على سطح الكعبة التي كانت على وشك الانهيار ووضع ألواح جديدة في مكانها. (...) وعند فحصها، رأى المهندسون المعماريون ومسؤولو العمال وحسن باشا أن حوالي سبعة وعشرين لوحًا من الألواح كانت فاسدة ومتعفّنة (...) وتمّ العثور على ثلاثة منها بعد الفحص، وكانت بحالة جيّدة بما يكفي لإعادة استخدامها. لكن أربعة وعشرين منها كانت غير مناسبة تمامًا. لذلك، تمّ وضع ألواح جديدة تمامًا مكانها. وعندما تمّ وضع العوارض التي كانت على السطح في مكانها السابق كما كانت من قبل (...) تمّ وضع عوارض الطوق والدعامات التي أعدت للزوايا المتدهورة [الكعبة] في أماكنها. وكان الإصلاح الكامل للأجزاء المكسرة من الجدران وتقويتها أيضًا من بين المهام الرئيسية (...) وأما المهندسون المعماريون الخبراء والعمّال الماهرون الذين يقدّرون ويقيسون من خلال الامتداد والاتساع، فقد استخدموا ذكاءهم عند النظر في كيفية القيام بذلك (كرين، 1987، ص. 58، رقم 64).

حتى لو لم يكن قابلاً للمقارنة بشكل مباشر من حيث السياق التاريخي مع الظروف المعاصرة، فإن هذا المثال الاستعادة أوائل القرن السابع عشر يقدّم لنا فكرة أوضح عن خطابنا النقدي حول كيفية تنسيق ممارسات التراث وجسر الانقسام بين معابير الحفظ العالمية والمحلية.

3. نموذج 4C

إن الواقع الحالي، الذي يعمل فيه العنف وانعدام الأمن، وهي عناصر موجودة باستمرار في العديد من المجتمعات الإسلامية، والذي يؤدي إلى فصل الناس عن أوطانهم، يوفّر التراث وسيلة للمقاومة وضمانا للبقاء. فاستغلال التراث واستخدامه كأداة بهذه الطريقة لتحديد موقع الأشخاص الذين فقدو الأمان من حياتهم اليومية، أمر يتم تجديده من خلال عوامل أربعة تالية وهي: الاستمرارية، والمجتمع، والسياق، والإمكانات الحاسمة للتراث للاستجابة للحتياجات المحددة للحظة معيّنة في تاريخ المجتمع الثقافي ذي الصلة. كلٌّ من هذه العوامل لها تأثيرها الخاص على القيمة /القيم إلى المكوّنات المادية وغير المادية للتراث كجزءٍ من السعي للتغلّب على الصدمات الاجتماعية، توجّه انتباهنا إلى جوانب محدّدة من مفهوم الأصالة والسلامة.

1.3. الاستمرارية والمجتمع والسياق والمقاربة النقدية

إن التغيير المستمرّ والتدريجي هو صفة ثابتة من صفات الوجود البشري. والحدود بين حماية التراث الثقافي وتدميره هي مقاربة دالّة على كيفية تعاملنا مع كمّية هذا التغيير ونوعيّته وسرعته، وهو يظهر، بالتالي، كيف ينشط المجتمع الثقافي ويستديم التراث الثقافي من خلال عمليات الاكتفاء الذاتي.

عندما تسمح هذه المقاربات بالحفظ والتناقل عبر الأجيال لسماتِ القيم التي تعكس هويّة المبنى وتعبّر عنها، فإن هذا التراث الثقافي يعبّر عن إمكاناته الكاملة داخل المجتمع المعاصر. فما هي جوانب التراث الثقافي التي يمكن أن تساعد في إعادة إرساء الاستمرارية عندما ينهار التراث الثقافي نفسه ويتعرّض للدمار؟ ولماذا تثير الضائقة الاجتماعية القلق بشأن التراث الثقافي؟

لقد رافقني شاب من مدينة نابلس في زيارة إلى قصور حضرية مدمّرة ومهجورة تعود للقرن التاسع عشر كان من المقرّر تضمينها في أحد مشاريع إعادة الإحياء في عام 2014. فقد أبدى لي هذه الملاحظة عندما كنت ألقي محاضرة عن إدارة التراث الثقافي، أثناء نقاشنا عن منازل الفلسطينيين التي يقال أنها بلا شعب، وعن الشعب الفلسطيني الذي يعيش بلا منازل. قال لي: "لو لا الصراع لما كنّا نهتم بالتراث". تحتوي هذه الجملة على النموذج الذي بموجبه يُعتبر اهتمام الشباب الفلسطيني بالتراث وببنية التراث الثقافي للمجتمعات المعرّضة لضغوط صدمة الحروب والاحتلال، أدوات تساعد تلك المجتمعات على التعامل مع هشاشة حياتها اليوم. (الصورة رقم 1)

إن ممارسات حفظ التراث هي وسيلة للبقاء. ففي ظل ظروف الصدمات الاجتماعية، عندما يتعرّض الناس وبيئتهم للهجرة القسرية والدمار الماديّ، تعتمد قدرتهم على الصمود على جانبين لا إراديّيْن اجتماعيين: تقويةُ المجتمع وإرساءُ الاستمرارية. وتنشأ مع محاولةُ ربط الحاضر غير المريح أو غير المرغوب فيه أو المفقود أو المنفي إلى حدّ كبير بماضٍ مستقرّ ومرغوب فيه وحنين إلى الماضي الجميل.

إن ممارسات التراث تعمل داخل المجتمعات المتضرّرة من العنف مثل أساليب إصلاح الحاضر والتأكيد على مرونة الحياة البشرية الضعيفة وقيمتها (قيمها) التي يتمّ إنفاق وجودها الماديّ بهذه الطريقة. وتفسير التراث بهذه الطريقة يخلق جسرًا مؤقتًا للخلاص نحو مستقبل يُتوقّع أن يتضمن عودةً إلى الأمن والمغزى.

إن الحفظ، باعتباره بقاء ثقافي، هو عنوان لمجموعة من المقالات والمحادثات حول برامج ومشاريع حفظ التراث التاريخي التي نظّمها الأغا خان في عام 1978. بالاعتماد على أمثلة من المجمّعات التاريخية والبيئات الحضرية مثل فاس والاهور وجاكرتا واسطنبول وأنطاليا، وصنعاء والقاهرة وبعض المناطق في سلطنة عمان، وهي إشارات لمشاكل ما زلنا نواجهها اليوم في العديد من المدن داخل المجتمعات المسلمة ضغوط تنموية، وإهمال وهجر للبيئات الحضرية، وقلة اهتمام أصحابها بحماية تراثهم الثقافي، والتحسين، واستخدام المواد والأشكال المعمارية التي تسرّع من تدهور النسبج الأصلي.



الشكل 1:
 قصر طوقان المدمر
 في مدينة نابلس

حتى عندما لا يتم النظر إلى الحفظ في ضوء العنف المسلّح، حيث تنعكس مصائر الناس في مصير تراتهم، ظلّت كلمة "الاستمرارية" بشكل عام مفتاحًا للمناقشات حول البقاء الثقافي، لتذكيرنا بأن هذا هو الجانب الأكثر ضعفًا، جانب من جوانب التراث الثقافي (هولود، 1980). وقد أشار حسن فتحي، أثناء مشاركته في هذا النقاش، إلى أهمية الاستمرارية من خلال حماية "المعالم والمدن" والمحافظة عليها: "في أوروبا تستمر التقاليد؛ ولكنهم في بلادنا، لم يفعلوا ذلك. أعتقد أنه ينبغي علينا أن نتذكر أن أهمية الحفظ لا تقتصر على الحفاظ على أشكال المباني التاريخية للأجيال القادمة؛ فالحفظ يعد أيضًا آلية لنقل التقاليد القديمة من وجهة النظر المفاهيمية والوظيفية" (فتحي، 1980 ص 193).

إن قدرة الناس على ضمان استمرارية الذاكرة الثقافية هي قيمة تسهّل بقاء المجتمعات التقليدية. ويظهر المجتمع والاستمرارية في دور القيّم التراثية الجديدة والمهيمنة للمتضرّرين من العنف المسلّح. ولا يتمّ التعبير عن هذه القيّم بوضوح أو قراءتها في التراث حتى تجدّ نفسها معرّضة للتدمير المنهجي. إن إسناد فاعلية الاستمرارية والمجتمع إلى المباني أو التعبيرات من الماضي يستلزم تحويل هاتين الخاصيّتين إلى قيم سائدة.

وتعتبر الحياة ما بعد الصدمة للتراث نوعًا محدّدًا من التغيير في إسناد القيمة (القيّم)، حيث يكون المكان، والشكل، والموقع داخل المشهد الثقافي، والوظيفة، والعادات، والمشاعر، والمعتقدات - هذه المكوّنات كلّها مع قدرتها على الحفظ تصبح متميّزة فيما يتعلق بالمواد، والجوهر، والزنجار، والتفاصيل.

ويجادل بيرنبيك (2013) بأنه "عندما يعود التاريخ بعنف، وتتمّ إعادة تقييم الفراغات والشظايا وتحظى بأهمية خاصة، فإن الفراغ والمواقع وبقايا الأثار المدمّرة تستمرّ في الحفاظ على أهميتها بمجرّد تضمينها في الهيكل، وتصبح من تلقاء نفسها موضوعًا للتراث".

إن تحديد حاملي قيم الاستمرارية والاتصال داخل المجتمعات المصابة والمتضرّرة هو أحد أشكال المعالجة الاجتماعية للصدمة. فالسياق هو المفتاح لاختيار المكوّنات التي ستُنسب إليها القيمة، ولإتقان طرق حفظ الأصالة. وتلعب الطريقة التي يؤسس بها الناس هذه الأشياء دائمًا دورًا في الاختيار النقدي للطريقة الأكثر أمانًا لضمان أن يخدم البقاء البناء التراثي. إن الوصول إلى قيّم التراث كجزء من استجابة الناس لتدمير التراث يؤكّد الجوهر غير المادي للتراث نفسه.

أثناء الحياة ما بعد الصدمة للمجتمعات، نعدد فيما يلي شروط مداواة الصدمات الاجتماعية وهي: الوصول إلى حقوق الإنسان، وتحقيق العدالة، واستعادة الثقة المتبادلة. إن الاختيار النقدي لإجراءات حماية التراث المحددة التي تسهّل إنشاء بعض هذه الشروط على الأقل، يرتكز على خطاب المجتمع نفسه، ويمثل مقاربة تركز على موقف النس تجاه التراث.

إن الخطاب التراثيّ المعتمد الذي يمنح امتيازًا لقوة المعرفة المتخصصة والقرارات الرسمية على قيّم الأشخاص الذين يعيشون في مساحة التراث تلك وعلى واحتياجاتهم (سميث، 2006، ص 4) لم يعد مستدامًا، على الأقلّ، في سياق ما بعد ممارسات التراث المؤلمة. في حين أن القيم الجمالية والتاريخية والوثائقية والفنّية والعمرية والتكنولوجية والهيكلية والتعليمية تعزى إلى المحترفين - باحثين وخبراء - رمزية ودينية وهوية ومعالماً ووجودية واستمرارية وربطًا، وحتى منظر المدينة الثقافي وقيم التعلق الأخرى من قبل المجتمع. ويعد دمج التراث في التعافي بعد الصدمة عملية يتمتع فيها المهنيون، بالإضافة إلى المعرفة الفنية والنظرية، بتطوير مهارات العمل مع المجتمعات، وإدارة التبادل المتبادل للمعرفة - التعلّم والتعليم - وتحديد المجتمع طرق الحفاظ على السمات ذات الأهمية للتراث وحفظ أصالتها من خلال أعمال الترميم.



◄ الشكل 2: فلسطينية من الجيل الثالث خلال زيارتها لمنزل العائلة في قرية صوبا، التي تم إخلاء سكانها في عام 1948م. (المصدر: عمر عليان)

2.3. ممارسات تخليد التراث ذات الصلة - بيت الحجّ

إن الممارسات التي يستخدمها الفلسطينيون في الحفاظ على التراث الذي حُرموا من حقّه تشير إلى أهمية الفراغ الذي لا يزال مع ذلك يحتوي على القدرة على حفظ الاستمرارية والاتصال. وتتطوّر مثل هذه الممارسات بشكل عامٍ ضمن أطر خطاب التراث الشعبي. وأحدها هو إنشاء نوع من طقوس الحجّ إلى القرى التي تم تطهير هم منها عرقيًا في عامىْ 1947 و 1948.

يربط هذا التعبير الجديد غير المادي لثقافة المجتمع بالمكوّنات المادية للتراث، فهذا هو الجيل الثالث من المنفيين الذين يواصلون زيارة وطنهم المهجور، والبيوت الخالية والمهدّمة، وبساتين الفاكهة والزيتون التي باتت بذورًا وأعشابًا جافّة وأصبحت خرابًا، بينما يؤدون صلاتهم الجماعية داخل القرية المهجورة.

يوفّر إنشاء شعيرة الحجّ عبر الوطن المفقود نظامًا مُكيَّفًا السياق لإدارة التراث المادّي وغير المادّي. فمعظم هؤلاء الناس، الذين يتأمّلون في قيمة الحفاظ على استمرارية ممتلكاتهم الخاصة في العالم، وبالتالي التواصل مع الأخرين الذين يشاركونهم هذه القيّم وقراءتها على بقايا هذه القرى، لم يولدوا هناك ولم يعيشوا هناك أبدًا.

وقد تم إدراج تلك المنطقة، التي ترسم أشكالها وألوانها وأصواتها وعاداتها وتعكس هويتها بطريقتها الخاصة في عرض الأشياء من خلال القصص العائلية، تحوّلت على مدى سبعة عقود إلى ذاكرة جماعية. إن أرشفة الذكريات، والتصوير، والزيارات المنتظمة كلها طرق تضمن من خلالها مناطق المنفيين الفلسطينيين وفاءهم بالتزاماتهم تجاه مواقعهم التراثية من أجل "تسليمها بالثراء الكامل لأصالتها". (الصورة 2)

3.3. إعادة الإعمار بالمشاركة - ربط العقدة في خيط الاستمرارية الممزّق

تتضمن المرحلة الثانية في إعادة إنشاء شرائح الذاكرة المدمّرة إعادة البناء المادي والتطبيق الانتقائي للممارسات التي تحيل فقدان الأصالة المادية إلى الخلفية، مقارنةً بتأكيد صحّة سمة الاستمرارية. وتتطلب إعادة بناء الرموز المرئية المميّزة للاتصال بمكان معيّن الإدماج الكامل للمجتمع في التخطيط والتنفيذ، وكذلك بالطبع، مثل جميع الممارسات التراثية التي تتبع ذلك. وتنطوي إعادة البناء التشاركي للتراث الثقافي على إمكانات تتجاوز مجرّد إعادة البناء المديناء المادي للمباني نحو التعافي من الصدمات الاجتماعية.

إن اختيار إعادة الإعمار كطريقة لحفظ الأصالة يتم تحديده في حدّ ذاته حسب السياق. وتتطلب المقاربة النقدية لمبررات إعادة الإعمار استيفاء الشروط التالية:

ينبغي أن يعيش مجتمع التراث في المنطقة المراد إعادة بنائها أو بالقرب منها، وينبغي أن تسهّل عملية إعادة الإعمار أو تشجّعها أو تسرع من عودتها؛ أنه سيؤمن الوصول إلى حقوق الإنسان؛ أن المجتمع يدرك احتياجاته وأولوياته في إعادة الإعمار؛ أن إعادة الإعمار ستحسّن الظروف الاقتصادية التي يعيش فيها مجتمع يعاني من صدمة الحرب؛ وأن إعادة الإعمار ستضمن إعادة تأهيل أسلوب الحياة في المواطن المدمّرة وتوفير أطر متفق عليها للتعافي المستدام.

في خطاب التراث المهني (سميث، 2006، ص 11)، تكون إعادة الإعمار مقبولة فقط إذا كان هناك توثيق تفصيلي حول تاريخ المبنى، وحالته قبل التضرّر وبعده، وتوافر الموظفين الأكفّاء، والموارد، والمواد، فضلاً عن كمّيةٍ ونوعيّةٍ كافيةٍ من بقايا المبنى المتضرّر، وذلك للتمكّن من الحفاظ على هويّته. أما إعادة بناء الجسر القديم في موستار وعشرات المباني والمجمعات المقدّسة والمباني العامة والأثرية والعموميّة بعد الحرب التي نشبت ما بين عاميْ 1992 و 1995 في البوسنة، فتؤكّد على الفروق الدقيقة العديدة التي تنطوي عليها مثل هذه الحلول المعتمدة على السياق، بالإضافة إلى التأثيرات المختلفة التي يمكن أن يكون لعمليات إعادة الإعمار تنفيذها. (الصورة 3) (Hadžimuhamedović, 2019).

4.3. المجاز المرسل - عندما يرمز الجزء إلى الكلّ المفقود

إن كلا المثالين من الحج إلى مشهدٍ منزليّ مدمّرٍ ومن خلاله إعادة بناء الآثار المدمّرة، يمثل عمليات ذات طابع طقسيّ مجتمعيّ. هذه الطقوس هي مرْكَبات لتوريث بقايا التراث، والفراغات والشظايا، (بيرنبيك، 2013)، وفي كثير من الأحيان للجمعيات غير المادّية التي تعبّر عنها تلك الشظايا في مشهد ثقافي مدمّر، على سبيل المثال مع الأصوات التي تجعل الفضاء مرْكزيًا وتنظّمه (دعوة المؤذن أو جرس الكنيسة).

فظاهرة وجود جزء من أجل الكلّ في أذهان المصابين بصدمة نفسية تستمرّ على المستوييْن الشخصي والمجتمعي. وتختلف هذه الظاهرة تمامًا عن الهوس الأثري بالشظايا وكذلك عن الآثار؛ وبدلاً من إزالة السياق والتحجّر، فإنه يتوسّع ويشتمل على السياق الأصلي، كما يمثل أيضاً مرحلة جديدة من التراث الحيّ. وهذه ليست ظاهرة معزولة تمامًا في سياقات ما بعد الصدمة. ومثال على ذلك هو العرف المحفوظ في التراث الإسلامي لأخذ قطعة من كسوة يتم إنزالها من الكعبة وتوزيعها على مناطق نائية من العالم كقطعة تأخذ مؤقتًا بعض القيّم الرّمزية للكلّ.



▶ الشكل 3:

البوابة الغربية للنجمة
المعاد بناؤها بحلول عام
1566م، دمرت في
عام 1993م، و من ثم
اكتملت إعادة الإعمار
في عام 2004م، وتم
التعلمي في عام 2004م، وتم
العالمي في عام 2005م، التراث
وهي واحدة من عشرات
المواقع التراثية البوسنية
التي أعيد بناؤها.
(المصدر: بيرفيس

وعلى الرغم من استمرارها، لم يتمّ التعرّف على هذه الظاهرة من قبل الخطاب التراثي الرسمي، وبالتالي ليس لها اسم يقوم على التراث. لهذا اقترضتُ اسمًا لها من علم اللغة - المجاز المرسل. والمجاز المرسل هو جزء من كائن تراثيّ ينسب إلى قيّم الكلّ، بما في ذلك القيّم المجتمعية والعاطفية بعد الدمار.

كانت ظاهرة المجاز المرسل في غاية الأهمية بالنسبة للأساليب المستخدمة في إعادة بناء التراث البوسني. لقد أخذت شظايا الأحجار المتناثرة من القطع الأثرية التي كانت تحمل أهمية مركزية للمجموعات التاريخية التي شكلت جزءًا منها، أخذت قيمة الأشياء المختفية.

و عندما دمرت القوات العسكرية الكرواتية أربعة مساجد في وسط ستولاك، وهي بلدة تاريخية صغيرة في جنوب البوسنة، في شهر آب/ أغسطس من عام 1993، بعد طرد كلّ مسلميها أو حبسهم في معسكرات الاعتقال، تمكّن أحد الأمراء من الفرار وإنقاذ نفسه. فسار لعدة أيام على التلال، قاطعًا ما يربو على مائة وخمسن كيلومترًا بين الجيوش المختلفة، في طريقه إلى سراييفو، التي كانت آنذاك تحت الحصار. وبمعجزة ما، تمكّن من الوصول إلى المدينة التي كان الجميع يحاول الهروب منها. وكان يحمل على ظهره في حقيبته حجراً من مسجد شارسيجا المدمر (1519) في ستولاك (Hadžimuhamedović, 2020, p.127).

أما السيدة صابرة هوسدزينوفيتش، وهي مهندسة معمارية من بانيا لوكا، فقد خاطرت بحياتها مع العديد من الأشخاص الأخرين، حيث جمعت القطع المنحوتة بدقة أو المزخرفة أو الملونة أو المذهّبة لمسجد فرهاديجة المدمّر في صباح اليوم التالي للتدمير. وبمجرد أن أزالت السلطات الصربية جميع بقايا المساجد الستة عشر التي دمّرت في بانيا لوكا من مواقعها السابقة لإلقائها في مكبّ النفايات أو رميها في البحيرات وغيرها من المواقع التي يتعذّر الوصول إليها، كانت الشظايا التي احتفظت بها صابرة والأشخاص الأخرون من بانيا لوكا على مسارات اللاجئين تمثل ارتباطًا ثمينًا مع مجتمع التراث البوسني بأكمله وتأخذ قيمةً رمزيةً ومقدّسة، فضلاً عن قيم الاستمرارية والتواصل (Husedžinović, 2001).

وعندما أعيد بناء مسجد الفرديجة في بانيا لوكا، ومسجد الأدزة في فوتشا، ومسجد شارشيسكا في ستولاك، بعد مرور عقد كامل على تدميرها، تمّ ايلاج الأجزاء المحفوظة بعناية في نسيج جدران الحجر الجديد. وكما تلقّاها مجتمع التراث البوسني، فإن هذه الأشياء التي أعيد بناؤها هي "حاويات" من شظايا ثمينة، نقلت، بعد إعادة البناء، القيمَ التي أخذوها إلى المبنى الذي أعيد تشكيله في عملية لا تزال مستمرّة. (الصورة 4)



◄ الشكل 4: أجزاء من مسجد أجزاء من مسجد تتمار شيسكا في ستو لاك تعمل كسمات لقيم في المبنى الذي أعيد بناؤه (تم بناؤه بحلول عام 1519؛ دمر في عام 1993؛ اكتملت إعادة الإعمار في عام 2003). رالمصدر: دير فيس حجى محمدوفيتش)

تعتمد المقالتان التاليتان على عملي الإثنوغرافي في تخليد التراث الفلسطيني لتوضيح كيفية عمل ظاهرة المجاز المرسل في سياقين مختلفين تمامًا.

إن السيد نصير رحمه عرفات، وهو مهندس معماري من مدينة نابلس، ورث مجمّعًا تاريخيًّا، هو مصنع عرفات للصابون الفخم الواقع في وسط مدينة نابلس. وفي عام 2002، دمّرت الهجمات الجوّية والمدفعية الإسرائيلية عشرات المباني التاريخية، بما في ذلك سبعة مجمّعات سكنية تقليدية للعائلات النابلسية. وفيما كان الغبار ما يزال متصاعدًا من أكوام الحجارة التي أصبحت عليها البيوت التاريخية، شرع نصير في إنقاذ الشظايا: بوابات المنازل، والحرابزين، وإطارات النوافذ، وشظايا بلاط الأرضيّات المزخرف (عرفات، 2020).

ولا تزال هذه البيوت تنتظر إعادة الإعمار، وذاكرتها محفوظة فقط في الأجزاء المجمّعة، التي أخذت دوراً ذاكرياً، وتربط معًا خيوط الاستمرارية المهترئة في ذلك المجتمع المحلي في مدينة نابلس. وقد أقحم بطريقة درامية بعض القطع داخل مصنعه القديم للصابون، والذي حوّله إلى مركز ثقافي للأطفال والشباب، وعرض البعض الأخر في ساحاته. وقد تحوّلت أبواب البيوت المدمّرة إلى لوحات يرسم عليها الأطفال أحلامهم بالحرية، الأقصى والقدس، التي لم يروها قريبة من قبل، لأن الفلسطينيين في مدينة نابلس لا يستطيعون الذهاب إلى هناك - مجاز مرسل - (الصورتان 5 و 6) يحمل كل جزء ذكريات عن المنزل الذي جاء منه ومعناه في إطار هيكل المدينة وتاريخ العائلة.



◄ من اليمين إلى اليسار: الشكل 5: نصير عرفات يجمع شظايا منازل في نابلس والتي دمرت في غارات جوية إسرائيلية عام 2002. (المصدر: نصير عرفات)

الشكل 6: نصير عرفات في مصنع الصابون التاريخي حيث عرض الأبواب المقتلعة من بيوتها الأصلية في نابلس والتي دُمرت في غارات جوية إسرائيلية عام 2002. (المصدر: نصير عرفات)







من اليمين إلى اليسار:
الشكل 7: أطفال يستعيدون
تر اثهم بالرسم على
الأبواب المقتلعة
من بيوتها الأصلية
(المصدر: نصير عرفات)

الشكل 8: بقايا من البلاط المزخرف وأنابيب المياه من المنازل النابلسية المدمرة والتي دمجت في مصنع عرفات للصابون لتكون بمثابة تذكار. (المصدر: نصير عرفات)

إن الشظايا، التي أخذت قيمة الكل المدمر، تعمّم هذا التراث في الذاكرة الثقافية الفلسطينية وتحفظه من الضياع. (الصورتان 7 و 8)

أما المقالة القصيرة الثانية فهي قصة شاركتها معي المهندسة شيرين ساحوري التي تعمل خبيرة في منظمة إيكروم في التراث الثقافي. وكانت تتحدث إليّ سعيًا منها في الحفاظ على الذاكرة الثقافية لعائلة زوجها في الشارقة. وزوج شيرين هو من مدينة البصّة التي تقع في شمال فلسطين، وهي المكان الذي طُرد منه والده عندما كان ما يزال طفلاً. وتحكي شيرين لتروي الحكاية وتقول:

"تم نفي والد زوجي من القرية عندما كان يبلغ من العمر اثني عشر عامًا، وكانت والدته حينئذ (ابنة عمته) تبلغ من العمر عامًا واحدًا. لقد غادروا القرية وهم يعتقدون أنهم سيعودون في غضون أيام قليلة. ولسوء الحظ، كانت هذه هي المرة الأخيرة التي زار فيها وطنه أو شاهده، حيث وافته المنية في عام 2015، قبل أن يتمكن من العودة إلى قريته. وقد قام والد زوجي بتربية أسرته على حبّ فلسطين. وقبل وفاته، رسم خريطة للقرية من ذاكرته عندما كان طفلاً. أراد أن يحتفظ بأي ذكرى يمكنه أن يحتفظ بها، لأن القرية لم تعد موجودة" (Sahouri, 2020). (الصورة 9).

الوصف التالي لحالة قرية البصّة في نهاية القرن العشرين مأخوذ من كتاب "كل ما تبقّى: القرى الفلسطينية التي احتلتها إسرائيل وأخلتها من سكانها عام 1948":



◄ الشكل 9:
 قرية البصة الفلسطينية
 المهجرة التي احتلتها
 إسر ائيل عام 1948





▲ من اليمين إلى اليسار: الشكل 10: كنيسة الروم الكاثوليك المدمرة في قرية البصة. (المصدر: شيرين ساحوري)

الشكل 11: بقايا الكنيسة من البصة تم جلبها في عام 2011 إلى منزل المغتربين من عائلة سمور لتكون بمثابة مكان المصلاة وكحلقة وصل مع الوطن المفقود. (المصدر: شيرين ساحوري)

"لا يوجد سوى مبنييْن رئيسييْن في القرية، هما كنيسة الروم الكاثوليك وربما كان أحد الأضرحة أو مزارًا إسلاميًا. أما الكنيسة فمبنيّة من الحجر وغنيّة بالسمات المعمارية. إلا أن هذه الكنيسة تنهار الأن من أحد جوانبها، وجدرانها في حالة تصدّع. وللضريح الإسلامي قبّة، وهو يقف مهجورًا وسط عديد الأشجار، بما في ذلك شجرتا نخيل. ولا يزال هناك عددٌ من المنازل في القرية، بعضها احتلها إسرائيليون. وأحدها عبارة عن مبنى كبير مؤلف من طابقيْن به أبواب ونوافذ مستطيلة ومقوّسة" (الخالدي، 1992). (الصورة 10).

أخبرتني شيرين عن حلم زوجها بزيارة البصّة، وهو ما تحقق له في عام 2011. وعلى الرغم من أنه لم يولد في البصّة ولم يعش هناك أبدًا، كانت القرية منزله ومركز ذاكرته ومناظره الشخصية. لقد جعلها تراتًا عائليًا. وقد تجوّلت شيرين وزوجها وأطفالهما في عام 2019 في أرجاء المكان كما لو كان مركز عالمهم أيضًا.

ذهب إلى هناك في عام 2011 وأخذ بعض الحجارة والتراب من القرية وتحديداً من الكنيسة التي كان تعمّد فيها والده ووالدته. أخذها لأبيه الذي كان يصلّي بها وكان يشمّ رائحتها صباحًا ومساءً (Sahouri, 2019). (الصورة 11).

إن استعادة الوطن لحياة أولئك الذين خرجوا منه من خلال نشر أجزاء من المباني البؤرية والمقدّسة والحاسمة رمزيًا توضح أهمية التراث الثقافي في الحفاظ على الروابط بين الناس والأماكن. فبواسطة المجاز المرسل، الكنيسة، والحي السكني، والوطن، كلها تمت ترجمتها بشكل رمزيّ إلى سياق الحياة في المنفى. تأخذ الشظايا قيم القداسة والمركزية والانتماء التي كانت للقرية وهيكلها والكنيسة في مركزها. تصبح هذه الشظايا تراثًا تؤمّن الأسرة من خلاله استمراريتها عبر الأجيال وعبر ارتباطها بالمنزل. عندما تُنسب الأجزاء إلى قيمة الكمال، فإن اختبارات الأصالة والسلامة تأخذ معنى سياقيًا جديدًا تمامًا.

استنتاج

يشتمل التكوين المعاصر للتراث في السياقات الإسلامية على تنوّ عات ثقافية في مجتمعات التراث، ويسمح لنا بتحديد أربعة أشكال من الوكالة: المجتمع، والاستمرارية، والسياق، وخطاب التراث النقدي. وتلعب هذه العوامل الأربعة دورًا مركزيًا في ثلاث عمليات تكوينية مشتركة في السياقات الإسلامية هي التالية:

- 1. تتسم المقاربة التقليدية للتراث الثقافي بالأهمية الغالبة التي تُمنح إلى كل ما هو غير ملموس ليتفوق على الملموس والمادي. وتقدم لنا الأمثلة التاريخية والحسابات التقليدية للأساليب المستخدمة لحفظ قيمة الأماكن المقدسة والعمل التعبيري، معلومات عن المعابير المعمول بها فيما يتعلق بما يمكن تغييره، وما لا يمكن تغييره، والتي كان لها تأثيرًا كبيرًا على تشكيل ممارسات التراث العاميّ. وقد لا يكون لممارسات التراث العاميّة هذه تأثير كبير على القانون أو الإطار المؤسسي اليوم، لكن قوة الانتقال عبر الأجيال هي التي تعمل مع ذلك على حفظ خطاب التراث في سياق العالم الإسلامي وعلى تنشيطه.
- 2. إن التوحيد العالمي، المترسّخ في المبادئ الدولية والمواثيق، والاتفاقيات، والمبادئ التوجيهية، التي لها جذور فيما يسمّى الأطر المعرفية الغربية وليس أقلها فئة التراث العالمي- قد استرشد بشكل كبير بسياسة حفظ التراث العام في السياقات الإسلامية- من حيث التسمية والتقييم والحفظ وطرق الإدارة، وكذلك أيضًا برامج التعليم والتدريب الرسمية.
- ق. شهدت الضائقة الاجتماعية، الناتجة عن العنف المسلح، والهجرة القسرية الجماعية، والتحوّل السياسي الاقتصادي، مجموعة متنوّعة من انتهاكات حقوق الإنسان والسلامة الفردية، وهي تنعكس في الأشكال العديدة للتدمير المنهجي للتراث الثقافي. وكجزء من مقاومتهم لمثل هذه الضغوط، يبحث الناس عن إمكانات معيّنة في التراث الثقافي لربط المجتمع، وإعادة تأسيس الاستمر ارية المعطلة، ومعالجة الصدمات الاجتماعية. إن قيم الاتصال والبقاء والدفاع والأمل في العودة، والمركزية في عالم ممزّق، وتذكّر المعاناة والخسارة، كلها ثقرأ في التراث بطرق مختلفة لم يعترف بها حتى الأن الخطاب التراثي الرسمي.

إن العوامل المتداخلة والمتشابكة والمتناطحة لهذه العمليات الثلاث ينتج عنها ممارسات تراث ديناميكية ومختلطة وهجينة قد تأخذ، من خلال كل منها وبدورها، خصائص مشتركة ومنتشرة في سياقات إسلامية مختلفة. فالقبول بأن الأصالة تُعطى، بشكل عام هنا، تركيزًا أقل على أنها صفة من الهويّة، هو موضوع جدير بالملاحظة بشكل خاصّ. وتنعكس الهويّة من خلال استمرار السمات غير الملموسة للقيم ونطاق تحويل القيمة إلى أشكال أو أجزاء جديدة من التراث. وقد تمّت ترجمة عمليات حفظ الأماكن المقدّسة وتنشيطها، على سبيل المثال، من خلال الحجّ، في الحفاظ على الروابط مع منزل الشخص المفقود.

أقترح هنا أنه يمكن لجزء ما أن يمثل الكلّ في الأوضاع التي تصبح فيها الروابط المادية بين الأشخاص والأماكن والمباني التي يقرؤون منها قيم التراث عادةً مستحيلة. وقد أصبحت ظاهرة المجاز المرسل أداة مهمة لنقل التراث والحفاظ على المجتمع من خلال الروابط مع المنازل المفقودة وأماكن الانتماء. والمجاز المرسل هو تجاوز مؤقّت يؤمّن التواصل بين الناس وتراثهم في حالات الأزمات. ومع ذلك، فإن لديه أيضًا القدرة على أن يصبح ترانًا حدّ ذاته.

شكر وتقدير

أود أن أشكر زميليّ نصير عرفات وشيرين ساحوري على موافقتهما على مشاركة قصصهما الشخصية حول الإجراءات التي يمثل فيها جزء من التراث من أجل الكلّ المفقود، وعلى الصور المستخدمة في أجزاء من النصّ حيث يتمّ وصف هذه الظاهرة. واقتراح استعارة "مصطلح المجاز المرسل" من النظرية الأدبية للظاهرة التي أدين بها لتريفور ه. ج. مارشاند في إحدى محادثاتنا، حيث دعم فيها استدامة الأطروحة في دراسات التراث.

وأ نا أيضًا ممتنةٌ للمصطلح المقترح ولمشاركته الكريمة للأفكار. كما أشكر السيدة ترينيداد ريكو على الدعم الجماعي الذي قدمته وعلى إتاحة الوصول إلى منشور اتها العديدة ونتائج بحثها المهمّ في مجال الممارسات التراثية في السياقات الإسلامية. وتجدر الإشارة إلى أنه قد تمّت كتابة غالبية النص باللغة البوسنية، ثمّ عمل الأستاذ ديزموند مورير على ترجمه إلى اللغة الإنجليزية، وهو الذي أدين له أيضًا بالامتنان لقراءته النقديّة ولتعليقاته المفيدة.

إضافات

- أ استخدم تركيبين، السياقات الإسلامية والمجتمعات المسلمة، من أجل التحديد المجتمعي وليس اللاهوتي للأنظمة التي يستمر فيها الأشخاص الذين يسمون أنفسهم مسلمين كمجموعات مكونة ثقافيًا، وأحيانًا يتشاركون نفس الثقافة والتقاليد الشعبية، أو مكوناتها وقيمها الرئيسية، مع أشخاص من ديانات أخرى أو بدون دين. من خلال استخدام الجمع، أشدّد على تعددية كل من السياقات والمجتمعات.
 - (2005 انظر: اتفاقية قيمة التراث الثقافي للمجتمع التفاقية فارو (2005)
- ٥ من المهم أن نلاحظ أن ترينيداد ريكو تكرر في جميع منشوراتها أن مصطلح "التراث الإسلامي" غير مدعوم حقًا في دراسات التراث النقدي، وأن المصطلح نفسه يستحق إعادة النظر من خلال دراسات الحالة. كما تشدد على أن العلاقة بين الممارسات الدينية والتراثية، وهي الخصوصية الرئيسية للممارسات التراثية في السياقات الإسلامية، تجعل الفكرة برمتها معقدة و "تقاليد غير مرتبة". (راجع ريكو، 2017 أ، 2017 ب، 2019).
- 4 غالبًا ما توصف الأصالة بأنها مقياس للقيمة. يناقش لويس دومون (2013) كيف يتم تخصيص خير أفلاطون ككائن أسمى في الكلمة الحديثة للمقابيس وكيف تحل القيم النسبية محل الصالح العالمي. ويقول: "إن طبيعة علمنا هي أن وجوده في حد ذاته يفسر أو بالأحرى يعني الفصل بين الحقيقة من ناحية، والجميل والخير من ناحية أخرى، وعلى وجه الخصوص بين الوجود والقيمة الأخلاقية، ما هو وما يجب أن يكون. لأن الاكتشاف العلمي للعالم كان مبنيًا على حظر جميع الصفات التي لا ينطبق عليها القياس المادي باعتبارها ثانوية ". (ص 289)

المراجع

- Aksoy, Ö. C., 2017. Framing the Primordial: Islamic Heritage and Saudi Arabia. In: T. Rico, ed. *The Making of Islamic Heritage, Heritage Studies in the Muslim World.* New York(NY): Palgrave Macmillan: Heritage Studies in Muslim World, pp. 67-88.
- Angawi, S., 1980. The Hajj and Conservation. In: R. Holod, ed. Philadelphia: Aga Khan Award for Architecture, pp. 41, 42.
- Arafat, N. R., 2020. Synecdoche [Interview] (2 November 2020).
- Bernbeck, R., 2013. Heritage Void and the Void as Heritage. In: C. Kleinitz, C. Näser & S. Altekamp, eds. Global Heritage Worlds Apart? The Cultural Production, Appropriation and Consumption of Archaeological Heritage Spaces in Northern Africa and the Middle East, Archaeologies: Journal of the World Archaeological Congress. New York: Springer, p. 526–545.
- Blair, S. S. & Bloom, J. M., 2003. The Mirage of Islamic Art: Reflections on the Study of an Unwieldy Field. *The Art Bulletin*, March, LXXXV(1), pp. 152-184.
- Burckhardt, T., 2009. Art of Islam. Commemorative Edition ed. Bloomington: World Wisdom.
- Council of Europe, 2005. Convention on the Value of Cultural Heritage for Society (Faro Convention). [Online] Available at: https://www.coe.int/en/web/culture-and-heritage/faro-convention [Accessed 18 December 2019].
- Crane, H., 1987. Risāle-i mi 'māriyye: an early-seventeenth-century Ottoman treatise on architecture: facsimile with translation and notes. Leiden: E.J. Brill.
- Dumont, L., 2013 . On Value. The Radcliffe-Brown Lecture in Social Anthropology, 1980. *Journal of Ethnographic Theory*, III(1), p. 287–315.
- Fathy, H., 1978. Comments. Philadelphia, Aga Khan Award for Architecture., p. 103.
- Gleditsch, N. P. & Rudolfsen, I., 2016. Are Muslim countries more prone to violence?. *Research and Politics*, 11 May, III(2), pp. 1-9.
- Grabar, O., 2005. Upon Reading al-Azraqi. In: *Early Islamic Art*, 650-1100, *Constructing the Study of Islamic Art*. Hampshire: Ashgate Publishing Limited, pp. 57-69.
- Grabar, O., 2010. In Conversation with Oleg Grabar [Interview] (8 August 2010).
- Hadžimuhamedović, A., 2014. Three Receptions of Bosnian Identity as Reflected in Religious Architecture. In: G. Ognjenović & J. Jozelić, eds. *Politicization*

- of Religion, the Power of Symbolism: The Case of Former Yugoslavia and its Successor States. New York (NY): Palgrave Macmillan, pp. 105-158.
- Hadžimuhamedović, A., 2019. *Participative reconstruction as a healing process in Bosnia*. Paris:UNESCO and World Bank.
- Hadžimuhamedović, A., 2020. Mosque First: Coming to Terms with the Legacy of Abuse in Bosnia Through Heritage Restoration. In: A. Akšamija, ed. *Architecture of Coexistence: Building Pluralism.* Berlin: ArchiTangle, pp. 120-133.
- Hillenbrand, R., 2021. The Multiple Faces of Restoration in the Medieval Islamic Architecture of Central Asia. In: R. Hillenbrand, ed. *The Making of Islamic Art Studies in Honour of Sheila Blair and Jonathan Bloom.* Edinburgh: Edinburgh University Press.
- Holod, R., ed., 1980. *Conservation as Cultural Survival*. Philadelphia: Aga Khan Award for Architecture.
- Husedžinović, S., 2001. Synechodche [Interview] (27 March 2001).
- ICOMOS Advisory Committee, 2018. Buenos Aires Declaration marking the 70th anniversary of the Universal Declaration of Human Rights. [Online] Available at: https://www.icomos.org/images/DOCUMENTS/Working_Groups/AGA2018_BuenosAiresDeclaration EN-FR-ESP final.pdf [Accessed 8 June 2021].
- ICOMOS, 1964. International Charter for the Conservation and Restoration of Monuments and Sites. Venice: ICOMOS.
- ICOMOS, 2014. Nara + 20: On Heritage Practices, Cultural Values, and the Concept of Authenticity. [Online] Available at: http://www.japan-icomos.org/pdf/nara20 final eng.pdf [Accessed 10 April 2021].
- Jokilehto, J., 2006. Considerations on authenticity and integrity in world heritage context. *City & Time,* II(1).
- Jokilehto, J., 2019. Questions of authenticity. *Conversaciones...con Herb Stovel*, Decembre, V(8), pp. 55 72.
- Khalidi, W., ed., 1992. All That Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948. Beirut: Institute for Palestine Studies.
- King, D. A., 1985. The Sacred Direction in Islam A Study of the Interaction of Religion and Science in the Middle Ages. *Interdisciplinary Science Reviews*, December, X(4), pp. 315-328.

- Lings, M., 1983. *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources*. Rochester (Vermont): Islamic Texts Society, Inner Traditions Bear & Company.
- López, J. C. C., Živković, J., Aljawabra, A. & Lababidi, R., 2020. Islamic Heritage in Three Peninsulas: Qatar, Iberia, and the Balkans. In: B. J. Walker, T. Insoll & C. Fenwick, eds. *The Oxford Handbook of Islamic Archaeology*. Oxford University Press, pp. 731-754.
- Mahdy, H., 2019. Is Conservation of Cultural Heritage Halal? Perspectives on Heritage Values Rooted in Arabic Islamic Traditions. In: E. Avrami, S. Macdonald, R. Mason & D. Myers., eds. *Values in heritage management: emerging approaches and research directions*. Los Angeles (California): The Getty Conservation Institute, pp. 127-154.
- Nasr, S. H., 2001. The Spirit of the Cities. In: I. Serageldin, E. Shluger & J. Martin-Brown, eds. *Historic Cities and Sacred Sites: Cultural Roots for Urban Futures*. Washington: The World Bank, pp. 3-10.
- Necipoğlu, G., 2012. The Concept of Islamic Art: Inherited Discourses and New Approaches. In: B. Junod, G. Khalil, S. Weber & G. Wolf, eds. *Islamic Art and the Museum*. London: Saqi Books.
- Nezhad, S. F., Eshrati, P. & Eshrati, D., 2015. A Definition of Authenticity Concept in Conservation of Cultural Landscapes. *International Journal of Architectural Research*, March, IX(1), pp. 93-107.
- O'Meara, S., 2020. *The Ka 'ba Orientations Readings in Islam's Ancient House*. Edinburgh University Press.
- Pew Forum on Religion & Public Life, 2009. *Mapping the Global Muslim Population:*A Report on the Size and Distribution of the World's Muslim Population.

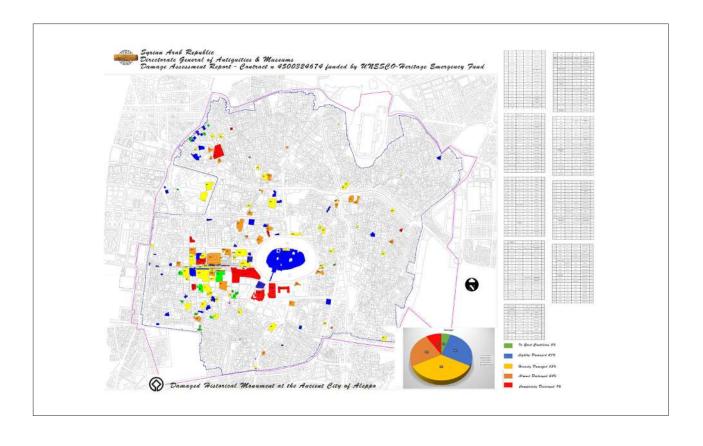
 [Online] Available at: https://www.pewresearch.org/wp-content/uploads/sites/7/2009/10/Muslimpopulation.pdf [Accessed 10 June 2021].
- Plutarch, 75 A.C.E.. *Theseus*. [Online] Available at: http://classics.mit.edu/Plutarch/theseus.html [Accessed 6 June 2021].
- Poerksen, U., 1995. *Plastic Words: The Tyranny of a Modular Language*. University Park: Pennsylvania State University Press.
- Rico, T., 2017a. The Making of Islamic Heritages: An Overview of Disciplinary Interventions. In: T. Rico, ed. *The Making of Islamic Heritage Muslim Pasts and Heritage Presents*. New York(NY): Palgrave Macmillan, Heritage Studies in the Muslim World.

الأصالة والهويّـة في سياق التراث الإسلامي المعاصر

- Rico, T., 2017b. Searching for "Islam" in Heritage Practices and Debates in Qatar. Journal of Arabian Studies, December, VII(2), pp. 211-24.
- Rico, T., 2017c. What is Preservation? Diversifying Engagement with the Middle East's Material Past Heritage Studies and Islam: A Crisis of Representation. *of Middle East Studies*, LI(2), p. 183–187.
- Rico, T., 2017d. Expertise and Heritage Ethics in the Middle East. *Int. J. Middle East Stud.*, Volume XLIX, pp. 742-746.
- Rico, T., 2019. Islam, Heritage, and preservation: an untidy tradition. *Material Religion*, XV(2), pp. 148-163.
- Rico, T., 2020. Is There an "Islamic" Practice for the Preservation of Cultural Heritage?. In: T. I. a. C. F. Bethany J. Walker, ed. *The Oxford Handbook of Islamic Archaeology*. Oxford University Press, pp. 642-705.
- Rico, T. & Engmann, R. A. A., 2019. Heritage, Islam, and the Vernacular. *Material Religion*, 30 Apr.
- Rico, T. & Lababidi, R., 2017. Extremism in Contemporary Cultural Heritage Debates about the Muslim World. *Future Anterior: Journal of Historic Preservation, History, Theory, and Criticism*, XIV(1), pp. 95-105.
- Ruskin, J., 1989. The Seven Lamps of Architecture. New York: Dover publications.
- Sahuri, S., 2020. Synecdoche [Interview] (2020 November 2020).
- Smith, L., 2006. Uses of Heritage. London: Routledge.
- Stovel, H., 2008. Origins and Influence of the Nara Document on Authenticity. *APT Bulletin*, XXXIX(2/3), pp. 9-17.
- Su, J., 2018. Conceptualising the subjective authenticity of intangible cultural heritage. *International Journal of Heritage Studies*, XXIV(IX), pp. 919-937.
- UNESCO, 1994. Information note: Nara Document on Authenticity. Experts meeting, 1-6 November, 1994WHC-94/CONF.003/INF.008 Original: English.
 [Online] Available at: https://whc.unesco.org/archive/nara94.htm
 [Accessed 15 April 2021].

التحدِّيات التي تواجه أصالة التراث الثقافي السوري بعد الحرب: حلب نموذجـًا

أ. مأمون عبد الكريم



▲ الشكل 1: توزع الأضرار في مدينة حلب من خلال المشروع الأولي التي قامت بها المديرية العامة للأثار والمتاحف بدعم من اليونسكو

تعدّ مدينة حلب واحدة من أقدم المدن المأهولة في العالم منذ أكثر من ألفيّ سنة قبل الميلاد. وهي تمتلك أهمية جغرافية وتاريخية واقتصادية بفعل موقعها الاستراتيجي في شمالي سورية، حيث نشطت حركة البناء والتشييد فيها عبر تاريخها الطويل، الممتد منذ الألف الثاني ق.م. وحتى القرن التاسع عشر. وقد بقيت الكثير من آثارها ضمن أسوارها القديمة خصوصًا خلال العصور الاسلامية، وأهمّها قلعتها التاريخية المشرفة على المدينة القديمة والتي تتميّزُ بعمارتها العسكرية الاستثنائية، وهي في حالة جيّدة من الحفظ، وما تزال تزخر بمكوّناتها المعمارية. وتحيط بها الأحياء القديمة التي يعود تاريخها إلى عصورٍ مختلفة، وكذلك بقايا الكنائس التي شيّدت في العصر البيزنطي، فضلاً عن مبانٍ أخرى من العصور الإسلامية، مثل المساجد والبيوت والقصور والحمّامات والخانات والمدارس.

ونذكر من تلك المباني الجامع الأموي الكبير، وبيت أجقباش، وبيت غزالة، والمدرسة الحلوية، والمدرسة الشيبانية، وحمام يلبغا، وخان الشونة، والجمرك، والحرير، وخايربك وغيرها. كما تتغرّع الأسواق القديمة ضمن محيط القلعة والجامع الأموي الكبير، وقد خُصتص كلّ منها لبيع أنواعً محدّدةٍ من البضائع، ومنها أيضاً سوق النحاسين وسوق الزّرب وسوق الحدّدين وغيرها.

في عام 1986، تم إدراج مدينة حلب القديمة كواحدة من المواقع المهمة في قائمة مواقع التراث العالمي لمنظمة اليونسكو، لارتباطها ارتباطًا وثيقًا بالأحداث التاريخية الهامّة والتقاليد القديمة الموروثة خصوصًا من العصور الإسلامية. وقد ساعد ذلك في تشكيل نسيج المدينة المعماريّ خلال العصور المتعاقبة. ولكن للأسف، عاشت مدينة حلب فترة طويلة من الحرب خلال الأزمة السورية، حيث اندلعت فيها الاشتباكات وبكثافة منذ عام 2012 وحتى بداية 2016، ما أدى إلى تدمير جزء كبير من التراث الثقافي في المدينة القديمة، وقد بات هذا يشكل اليوم تحديبًا كبيرًا في إعادة إعمار المبانى الأثرية فيها وتأهيلها.

أبرز الأضرار التي تعرّضت لها مدينة حلب القديمة

- تعرّضت مدينة حلب ومحيطها إلى أضرار كبيرة وأشكال عديدة من التخريب في العديد من الأحياء السكنية القديمة. كما تعرّضت مباني هامة، كالجامع الأموي، لأضرار جسيمة نتيجة الاشتباكات التي جرت فيها طوال ما يزيد عن أربع سنوات، حيث تم تقدير تلك الأضرار، بحسب الخبراء الذين عملوا على تقييم حالة المدينة القديمة، بأن حوالي ستين بالمائة من المباني التاريخية الموجودة في المدينة مقسّمة من حيث حالتها ما بين حالة كارثية أو حالة متوسطة التأثر، وأربعين بالمائة منها في حالة جيّدة من الحفظ المعماري.
- ولدينا العديد من المباني التي تعرّضت للدمار ولكن بنسب متفاوتة، ونذكر من بينها المساجد وأهمها الجامع الأموي الكبير الذي شُيِّدَ خلال العصر الأمويّ في القرن الثامن الميلادي. وكانت قد أجريت عليه تعديلات وترميمات خلال العصور المتلاحقة، خصوصاً العصر الأيوبي والعصر المملوكي. وقد تعرّضت أجزاء عديدة منه لأضرار تتراوح ما بين الأضرار المتوسطة والشديدة، وأشدها ما تعرّضت له مئذنة الجامع التي تتميّز بزخارفها الرائعة، حيث انهارت بشكل كلّي في عام 2013.

وتعرّضت كذلك جدر ان المسجد الخارجية، الشرقية منها والشمالية الشرقية، ومدخل الجامع في الجهة الشمالية الغربية للدمار، فضلاً عن تأثيرات متفاوتة من الأضرار كالفجوات التي أحدثتها طلقات الرّصاص، والحرائق في الواجهات الداخلية للجامع، كما تعرّض المنبر الخشبي للسرقة. أما الجامع والمدرسة الخسروية، فقد تعرضا للدمار بشكل شبه كلّى نتيجة لتفجير أحد الأنفاق الموجودة في المنطقة.



▶ الشكل 2: الأحياء الواقعة شمال القلعة

أما مسجد السلطانية، الذي تمّ بناؤه في القرن الثاني عشر، فلحقت به أضرار تمثلت في حدوث شقوق في قوس باب المدخل الرئيسي، عدا عن المنذنة المملوكية التي تضرّرت جزئيًا، بالإضافة إلى أضرار لحقتُ بمدخله. ونذكر كذلك جامع الأطروش الواقع في جنوب القلعة، وهو يعدّ من الأثار المملوكية الهامّة، ويعود تاريخه للقرنيْن الرابع عشر والخامس عشر. وقد تأثّرت قبّته بأضرار متفاوتة، وكذلك تعرّض القسم العلوي من مئذنته للتدمير.

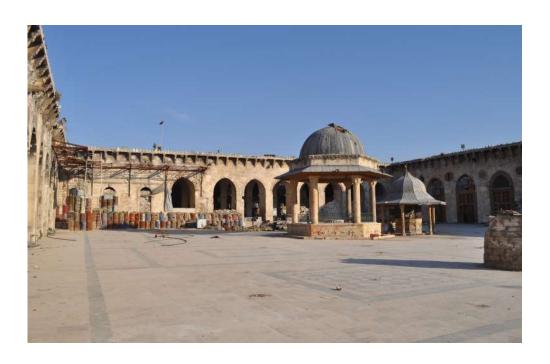
أما الخانات والأسواق التي تعود بتاريخها إلى الفترة الممتدة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، فقد قضت الحرائق على الأجزاء الخشبية لجميع المحلات التجارية في الأسواق القديمة ومنها سوق الزرب، وسوق الدراع وسوق اسطنبول وغيرها، وكذلك الخانات التي تتوسط تلك الأسواق، ومنها خان الفرايين والحبال. كما تعرض خان الشونة، الواقع في واجهة مدخل قلعة حلب، لحريق لكن هيكله الانشائي ما يزال جيّدًا. ونذكر أيضاً أهم المباني الأخرى التي تعرضت للحرائق مثل مبنى البيمارستان الأراغواني، الذي تعرّض للحرائق في أجزاء منه، وانهارت أسقفه وأصابت الأضرار قبّته.

وأما بالنسبة للبيوت التي تعرّضت للدمار والخراب، فأهمها بيت أجقباش الذي تحوّل إلى "متحف التقاليد الشعبية" في سنة 1981، وهو يعود للقرن الثامن عشر. فقد تعرّض سقف الإيوان للدمار بشكل أساسي، وتضرّرت أجزاء من جدرانه، كما تعرّض للسرقة. ونضيف أيضاً إلى ذلك كلّه بيت غزالة (موقع ذاكرة حلب) الذي يتميّز بزخارفه الجميلة الموجودة على واجهاته، فقد تعرض أيضاً للدمار في أجزاء كبيرة منه. كذلك لم تعلم الحمّامات العديدة من تلك التعديات ولكن بدرجات متفاوتة بين الطفيفة والمتوسطة والكبيرة، مثل حمام باب الأحمر، وحمام سوق الغزل، وحمام يلبغا الناصري.

وأخيراً لا بدّ لنا من ذكر المتحف الوطني الواقع في شارع البارون، فقد تضررت أجزاء من جدرانه نتيجة سقوط القذائف. وكذلك مبنى القصر العدلي (السراي) الموجود في محيط قلعة حلب، الذي انهار جزء كبير منه. وهناك عديد الأمثلة التي يصعب حصرها هنا ضمن هذه الصفحات. (الأشكال 1-2-3-4-6-6-7-8-9)



الشكل 3: قلعة حلب



◄ الشكل 4: الجامع الأموي

الاجراءات التي قامت بها المديرية العامة للآثار والمتاحف خلال فترة الحرب

الإجراءات المتّبعة:

- على الصعيد المحلي في كل المحافظات؛
 - حماية المقتنيات الأثرية في المتاحف؛

بالرغم من الدمار الكبير الذي لحق بالمباني الأثرية في مدينة حلب، إلا أنّه تم إنقاذ المقتنيات الأثرية الموجودة فيها. وقد قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف بإفراغ المتاحف من مقتنياتها طوال الفترة ما بين 2012 و2017، ووضعت جميع القطع الأثرية في أماكن آمنة، وتم تركيب أجهزة إنذار في بعض المتاحف والقلاع، وزيادة عدد الحراس وتكثيف دوريات المناوبة. كما تمّ تحصين الأبواب والنوافذ في المتاحف وتغطية القطع الكبيرة بألواح من الإسمنت لحمايتها من التكسير في الحالات الخطرة خصوصاً بسبب التفجيرات.

ابتدأت اجراءات الحماية في مدينة حلب القديمة بعملية نقل المجموعات الأثرية من متحف حلب المهدد بفعل الاشتباكات في محيطه وتعرّضه إلى القذائف إلى مستودعات جامعة حلب في الجزء الغربي من المدينة، ومن ثم تم نقلها إلى دمشق في عام 2015، إثر اشتداد التهديدات في مدينة حلب لضمان أمن القطع الأثرية وسلامتها حيث تم نقل حوالي أربعًا وعشرين ألف قطعة أثرية. كما كانت المديرية العامة للآثار والمتاحف قد نقلت أيضاً منذ عام 2013، مقتنيات "متحف التقاليد الشعبية" في بيت أجقباش إلى "المتحف الوطني" في حلب، وذلك بسبب تصاعد الخطر والعنف في المنطقة حيث يقع كل من بيت أجقباش وبيت غزالة.

مشروع توثيق القطع الأثرية في متاحف سورية:

عملت المديرية العامة للآثار والمتاحف على وضع الخطط واستكمال أعمال التوثيق والأرشفة للقطع الأثرية المحفوظة في المتاحف السورية، وذلك تحت إدارة فرق متخصصة من المديرية تم تكليفها بالقيام بهذه الأعمال الهامة، كالأرشفة والتوثيق والتغليف والحفظ لعدد كبير من القطع الأثرية. وتضمّن هذا العمل المقتنيات الأثرية التي تمّ نقلها من بعض المتاحف الواقعة في أماكن غير آمنة بسبب الظروف الحالية، إلى أماكن أكثر أمانًا.



◄ الشكل 5:
 مدخل سوق الزرب
 ومنطقة الجامع الأموي

كما تمّ انجاز مشروع توثيق القطع الأثرية على عدّة مراحل، حيث قامت المديرية في النصف الثاني من عام 2012، بإفراغ جميع خزائن العرض في المتاحف السورية، ونقل القطع المعروضة إلى أماكن آمنة.

وفي مطلع عام 2013 بدأ مشروع الأرشفة والتوثيق في أغلب المتاحف السورية:

المرحلة الأولى - كانت تتعلق بتوثيق جميع السجلات المتحفية الكترونياً في المتاحف كافةً.

المرحلة الثانية - تمّ خلالها إعداد قوائم ورقية جديدة خاصة بكل متحف، وتمّ حفظ القطع الأثرية ضمن صناديق أعدّت خصيصًا لهذه الغاية تتضمّن قوائم خاصة بها، حيث يتمّ في هذه المرحلة تصوير القطع بصورٍ ذات دقّةٍ عاليةٍ، ثم يتمّ تغليفها وفق الشروط المعمول بها دوليًا. بعد ذلك، يقوم فريق آخر بإدخال جميع بيانات القطع الأثرية في برنامج التوثيق الإلكتروني الذي أعدّته مديرية التقانة في المديرية العامة ليتمّ حفظها بشكلٍ آمن.

وخلال هذه الأعمال، أدّى فريق خبراء متخصّص من منظمة اليونسكو زيارة ميدانية للمتحف الوطني بدمشق، حيث اطلع على سيْر عملية التوثيق، وأعرب عن أهمية أعمال الأرشفة التي تقوم بها المديرية منوّهًا بدقتها العلمية والفنية.

وقد تمَّ إدخال بيانات وصور حديثة لأكثر من مائتين وثمانين ألف (280.000) صورة جديدة للقطع الأثرية. وما يزال العمل مستمرًا حتى الانتهاء من أعمال تحديث الأرشفة والتوثيق الإلكتروني لجميع المقتنيات المتحفيّة السورية.

مشروع توثيق المباني:

تمتلك مديرية المباني والتوثيق الأثري أرشيفًا كبيرًا، تعود وثائقه إلى ما قبل فترة الثلاثينيات من القرن العشرين، وتؤرخ لفترة تأسيس المديرية العامة للآثار والمتاحف وأعمال التسجيل وحفظ التراث التاريخي، والمواقع الأثرية. وهي تمتلك أيضًا وثائق إدارية وتشريعية وفنيّة، ونصوصًا تاريخية وصفيّة لكثير من المواقع والمعالم الأثرية والتاريخية، وصورًا فوتوغرافية قديمة لمعالم تاريخية هامّة، إضافة إلى مخططات عامّة وتفصيلية هندسية ومساقط ومقاطع لواجهات مباني أثرية، أنجزت بأيدي خبراء محليين وأجانب. كما أنها تمتلك دراسات

التحدّيات التي تواجه أصالة التراث الثقافي السوري بعد الحرب: حلب نموذجـًا

هندسيةً وتاريخيةً وأثريةً لمبانٍ هامة، كالجامع الأموي في دمشق، ومعالم دمشقية عمرانية، وقصر العظم، وخانات، ومساجد، ومقامات وغير ذلك.

يعد هذا الأرشيف الورَقيّ ذاكرة المديرية العامة للآثار والمتاحف، ومخزونها العلمي والغنّي الذي يشكّل أساسًا لمرحلة الإعمار في أغلب المحافظات السورية التي تضرّرت مراكزها التاريخية (مثل حلب وحمص ودير الزور). وقد بدأت مديرية المباني في عام 2012، بالتأسيس لمشروع رقْمَنة هذا الأرشيف، حيث تمّ تشكيل فريق فنّي لهذا العمل، وقد تمكّن من رقمنة أغلبية وثائق الأرشيف، فتم إنجاز الآتي:

• بلغ تعداد الوثائق المرقمنة خلال فترة الحرب (صور - مخططات - نصوص - مراسلات - وثائق إدارية وفنية) حوالي خمسين ألف وثيقة، وحوالي ألفين وخمسمائة مخطط كبير (مخططات مساحية وهندسية)، بالإضافة إلى رقمنة جميع قرارات التسجيل منذ تأسيس المديرية وحتى آخر قرار تسجيل. وفي سياق الخطة الاستراتيجية التي تنفّذها المديرية العامة للآثار والمتاحف لحفظ أرشيفها الورقي بشكل رقمي، تمّ عمل عدة نسخ رقمية منه لوضعه في أماكن مختلفة خوفًا من تعرضه للتلف أو الضياع أو السرقة أو التدمير كما حدث في شعبة المباني في مدينة حلب عندما تمّ تخريب أرشيف المباني التاريخية لمدينة حلب القديمة وحرق جزء كبير منه. كما أنهت مديرية المباني إعداد مسودة السجل الوطني للآثار الثابتة.

بالإضافة إلى ذلك أنجز فريق الخبراء في المديرية العامة للآثار والمتاحف خريطة تفاعلية رقمية للتراث الثقافي المتضرّر في سورية، بالاعتماد على برنامج GIS (نظم المعلومات الجغرافية) و"غوغل إرث". وقد تم إطلاقها على موقع المديرية العامة الإلكتروني باللغتين العربية والإنكليزية منذ شهر شباط/فبراير عام 2015، مما أتاح للمختصّين والمهتمين التعرّف على حجم الأضرار التي أصابت التراث الثقافي خلال الحرب ونوعها، خصوصاً وأن المعلومات المتوفّرة عن مدينة مثل حلب القديمة كانت ضئيلة، حيث أصابها دمار كبير بسبب الاشتباكات.

وقد ساعد ذلك على تحديد التصورات حول أولويات التدخّل لعمليات الصيانة والترميم في مرحلة ما بعد الأزمة وفق خطط عمل مطابقة للمعايير الدولية تضمن التنسيق بين جميع الجهات الحكومية المعنية بالشأن الأثري، وتؤمّن إشراك مؤسسات المجتمع المدني والجمعيات الأهليّة في عملية إعادة تأهيل المواقع الأثرية والمتاحف الوطنية مستقبلاً. كما تضمن أيضًا تعزيز التعاون مع الشركاء الدوليين والجهات الداخلية والخارجية المهتمة، والبعثات التقيية الأجنبية العاملة في المواقع المستهدفة.



▶ الشكل 6:
سوق الزرب

على الصعيد الدولي:

تم خلال الأزمة، تنفيذ الكثير من الأنشطة في مجال التراث الثقافي في الخارج بمساعدة دولية، كما تم تحقيق بعض النتائج من خلال التعاون مع المنظمات الدولية مثل منظمة اليونسكو، والمجلس الدولي للمعالم والمواقع - الإيكوموس، ومنظمة إيكروم (المركز الإقليمي لحفظ التراث الثقافي في الوطن العربي)، والمركز العربي الإقليمي للتراث العالمي في البحرين، ومنظمة الإنتربول الدولي طوال فترة الأزمة، مما أتاح الفرصة للمختصين في سورية للمشاركة في نشاطات تُعنى بحماية التراث الثقافي وبحفظه، وبتبادل الرؤى والمعلومات. لقد جاهدت المديرية العامة للآثار والمتاحف للحفاظ على اتصالات نشطة مع جميع البعثات الأثرية، والبقاء على التواصل معها طوال الأزمة، والحفاظ على المواقع التي يعملون فيها، وكان لذلك كلّه تأثير كبير من خلال تبادل الخبرات والأفكار العلمية مع زملائنا رؤساء البعثات ومع أعضائهم في الدول المختلفة التي تساعدنا في أداء هذه المهام.

الاجراءات التي قامت بها المديرية العامة للآثار والمتاحف في مدينة حلب بعد الحرب

تم إطلاق حملة توعية من قبل المديرية العامة للأثار والمتاحف من أجل توعية المجتمع المحلّي بضرورة حفظ المدينة القديمة، ومنع التدخّلات السيئة خلال مراحل الترميم. كما قامت بعمل توثيق ثلاثي الأبعاد في قلعة حلب، وذلك بالتعاون مع وكالة الخاني وذاك بعد ضمان أمن العاملين في المشروع. وبفضل دعم إحدى الشركات الإعلامية وشركة فرنسية أخرى، سارعت المديريّة العامة للأثار والمتاحف إلى تقييم الأضرار بشكلٍ أوليّ بدعم من منظمة اليونسكو. وبفضل الدعم الطارئ الذي تم توفيره، يتم أيضاً ترميم جسر المدخل الرئيسيّ لقلعة حلب. كما تم البدء بتنفيذ خطة للطوارئ في بعض المباني القديمة وإزالة أكوام من الأنقاض لمبانٍ حديثة بالتعاون مع المجلس البلدي من أجل إخلاء الشوارع وفتح المجال للوصول إلى الجامع الأموي وإلى القلعة.



◄ الشكل 7:
خان الشونة وخلفها
مبنى خسروية في حالة
من الدمار في الجهة
الجنوبية من القلعة

التحدّيات التي تواجه أصالة التراث الثقافي السوري بعد الحرب: حلب نموذجًا



▲ الشكل 8: ساحة الحطب في حى الجديدة

أما المباني التاريخية التي تعرّضت لأضرارٍ كبيرة ودمارٍ جزئيّ أو كلّي، فقد تمّ تقييم حالة بعضها كالجامع الأموي، وبدأت الأعمال بترميمها. وتقوم بتلك المهام مجموعة من الخبراء والمختصّين الذين يعملون تحت إشراف "دائرة آثـار حلب". وما تزال الأعمال مستمرّة حتى يومنا هذا.

كما قامت مؤسسة الأغا خان بإعادة تأهيل كلّ من سوق السقطية، وسوق خان الحرير. وبمبادرات أهليّة، تمّ ترميم الكثير من الجوامع والكنائس والمحلات والبيوت الخاصة وتأهيلها. كما تمّت إعادة تأهيل جزء من مبنى المتحف الوطني، وإعداد الدراسات المعمارية والإنشائية لترميم بيت أجقباش (متحف التقاليد الشعبية) وبيت غزالة (متحف ذاكرة مدينة حلب). ومن المفروض أن تبدأ الأعمال التنفيذية خلال الفترة القادمة، خصوصاً وأن الأضرار التي لحقت بها كبيرة وتفوق نسبتها الخمسين بالمائة. كما قامت محافظة حلب بتسوية ساحة الحطب بجوار المبنيين السابقين، وتأمين البني التحتية فيها بهدف تأهيلها.

وأخيراً فقد تم ترميم بعض الكنائس مثل الكنيسة المارونية في الجديدة بدعم من جمعية المسيحيين في الشرق. ويبقى حجم المشاريع المنفذة وتلك التي في طور التنفيذ محدوداً مقارنة بحجم الدمار الذي أصاب المدينة حيث لا يتجاوز حجم التنفيذ في أحسن الحالات حدود العشرة بالمائة من المباني المتضرّرة بعد أربع سنوات من توقّف الحرب في مدينة حلب.

وما يزال جزء كبير من المباني المتضرّرة في حلب القديمة بحاجة إلى مشاريع الترميم والتأهيل من خلال برنامج وطني ودولي يهدف إلى إعادة الأمور إلى وضعها الصحيح وفق المعابير العلمية المتبعة في تأهيل وترميم المباني بعد الحرب.



التحدّيات التي تواجه أصالة التراث الثقافي في حلب

▲ الشكل 9: متحف التقاليد الشعبية - بيت أجقباش في الجديدة

- حجم الدمار الكبير الذي أصاب المدينة القديمة بسبب عنف الاشتباكات التي جرت فيها والتي استمرت لفترة طويلة. فأكثر من ستين بالمائة من المدينة القديمة تضرّرت بمستويات مختلفة.
- غياب الدعم الدولي فنيًا وماديًا، وبسبب الظروف الاقتصادية الصعبة التي تعيشها سورية. فقد تأخّر الكثير من مشاريع الترميم للمباني الأثرية المتضررة، ما أدى إلى تدهور في حالة الأجزاء المتضررة بسبب الأمطار والظروف الطبيعية خصوصًا خلال فصول الشتاء التي مرّت على المدينة طيلة السنوات الماضية. ونستطيع أن نؤكّد أنه بعد مضيّ أربع سنوات على توقف أعمل العنف والحرب لم يتم ترميم أكثر من عشرة بالمائة من المدينة القديمة في أحسن الحالات.
- نهب جزء كبير من أرشيف مديرية آثار حلب خلال فترة الحرب، حيث نقع شعبة المباني في مبنى تاريخي قريب من منطقة الاشتباكات. لذا، سيتطلب الأمر التعاون مع جميع الشركاء الدوليين الذين عملوا في موقع حلب قبل الأزمة للمساعدة في إعادة بناء قاعدة بيانات المباني التاريخية فيها، وتجميع الوثائق المتوفرة عن المباني التاريخية المتوفرة لمتوفرة للمتوفرة لدى الجهات الأخرى مثل مديرية حلب القديمة التابعة للمحافظة أو مديرية الأوقاف أو الوثائق المتوفرة لدى مديرية المياني التاريخية في دمشق، ومن ثم العمل على التواصل مع الجهات الدولية مثل مؤسسة الأغا خان أو المعاهد الألمانية التي عملت لسنوات طويلة في مدينة حلب.
- رغبة الناس بالعودة إلى بيوتهم ومحلاتهم، يشكّل تحديًا كبيرًا بالنسبة للسلطات المعنيّة بحماية التراث الثقافي في مدينة حلب، حيث من الصعب السماح لهم بالعودة إذا لم تكن المناطق مهيّئة لاستقبال السكان من ناحية ضمان أمنهم بسبب حالة المبانى المهددة بالسقوط ووضعها الانشائى الضعيف، سواء المبانى السكنية أو المحلات، وكذلك

التحدّيات التي تواجه أصالة التراث الثقافي السوري بعد الحرب: حلب نموذجـًا

العمل على توفير الخدمات خاصة البنى التحتية. كما أن العودة السريعة للناس وبكثافة سيؤدي إلى الإضرار بأصالة المباني في الأحياء القديمة، وهذا ما حدث في البداية حيث أشارت التقارير العلمية الصادرة من مديرية الأثار إلى وجود كمّ هائلٍ من المخالفات قام بها السكان بسبب الترميمات التي تمّت على المباني والتي سعوا من خلالها للإسراع بعودتهم إلى بيوتهم.

لذا، من الضروري وضع استراتيجية علمية من خلال برنامج واضح يتم التوافق عليه بطريقة تعطي الفرصة لعودة السكان. إن وجود المجتمع المحلّي فيها يهدف إلى إحياء ذاكرة المدينة ضمن خطط ومُهَلِ زمنية معقولة دون الإضرار بأصالة المباني الأثرية، وذلك من خلال المخالفات والتجاوزات غير القانونية. هنا لابد من الإشارة إلى أهمية ما تم تنفيذه في مشروع إعادة تأهيل سوق السقطية من قبل مؤسسة الأغا خان في حلب، حيث أنه شكّل بداية لأعمال ترميم أسواق حلب في الفترة القادمة. ونحن متأكّدون بأن ترميم أسواق حلب سيكون بمثابة ترميم لذاكرة المدينة من خلال عودة فتح المحلات وإحياء النشاط التجاريّ فيها وهو ما يشجّع السكّان المحليين على العودة إلى مدينتهم.

الوضع الاستثنائي الذي عاشته سورية، وحجم الدمار الكبير الذي أصاب مدينة حلب خلال الحرب، يدعو إلى
 الحاجة لتطوير ضابطة البناء في مدينة حلب القديمة، بما يحقق حماية كاملة لأصالة التراث الثقافي فيها، والوقوف بحزم في وجه أصحاب المصالح والمستفيدين الذين يريدون تمرير استثماراتهم على حساب التراث الثقافي وأصالته.

إن تأمين المواد الأولية لأعمال الترميم والحفظ المعماري للمباني الأثرية، خصوصًا وأن الحصار المفروض حاليًا على سورية ومنذ سنوات، يشكّل عائقًا أمام توفير الاحتياجات اللازمة، كما أن الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي تعيشها سورية تشكل عائقاً في توفيرها بشكل مناسب.

- هجرة أعداد كبيرة من أصحاب المهن المتعلقة بالعمارة التقليدية من هذه المدينة سبّب نقصاً كبيرًا في الأيدي الماهرة التي تستطيع أن تقوم بقيادة ورشات العمل في مجالات مختلفة من بناء الحجر وأصحاب الخبرة في مجال الخشب مثلاً.
- حجم الدمار في مدينة حلب يتطلّب أعدادًا كبيرة من الورشات والحرفيين في مجالات مختلفة من الاختصاصات اللازمة لترميم المباني الأثرية المتضرّرة خصوصاً وأن الأعداد المتوفّرة لن تكون كافيةً لإعادة تأهيل المباني الأثرية ضمن فترة زمنية مناسبة. وبالتالي، ربما نخسر الكثير من الوقت، ولسنوات طويلة، للوصول إلى أهدافنا في إنقاذ مدينة حلب القديمة. إن هذا سوف يؤدّي إلى احتمالية تعرّض الكثير من المباني إلى المزيد من التدهور وتأخّر عودة المجتمع المحلي إلى أحيائها القديمة. من هنا، من الضروري أن نعمل على تكثيف الدورات التدريبية لتأهيل الشبّان في المهن الضرورية التي تسهم في إعادة تأهيل مدينة حلب. وخير مثال على ذلك ما قامت به مؤسسة الأغا خان التي قادت مجموعة من الدورات التدريبية في مجال نحت الحجر بالتعاون مع مديرية الأثار خلال عام 2017.
- التدمير الكامل لبعض مكوّنات التراث الأثري في المدينة، كما هو الحال في بعض الأسواق القديمة أو بعض المباني الدينية أو غير ها التي تم تدمير ها كلّيًا أو بشكل شبه كلّي. والسؤال هو كيف سنتعامل مع أوضاع المباني التي فقدت أصالتها بشكل شبه كلّي. إننا نحتاج إلى مناقشات معمّقة مع أصحاب الاختصاص، والإفادة من التجارب الناجحة في بعض البلدان التي عاشت تجارب مماثلة، بغية الوصول إلى رؤية علمية صحيحة تتجاوب مع المقاربات التي تتعلق بحماية الأصالة في المدن التاريخية مثل مدينة حلب. ونعتقد أن التحدي الأكبر يتمثل بإعادة بناء مئذنة الجامع الأموي التي انهارت كليًا في عام 2013. وبما أن أغلبية الحجارة القديمة قد بقيت في المكان وقد تم ترقيمها من جديد مع توفّر كلّ المخططات التفصيلية حولها لدى السلطات المحلية في مدينة حلب، فإننا نرى من الأهمية بمكان إعادة بنائها وفق أسس علمية واستادًا إلى المبادئ المتبعة دوليًا، لأنها تمثل حالة رمزية استثنائية للتراث الثقافي في مدينة حلب، ولأنها تمثلك مكانة كبيرة في قلوب سكانها. لذا نعتقد بأن مفهوم الأصالة يمكن ترجمته هنا بالترميم وبعودة الحياة لإحدى أهم رموز عمارة مدينة حلب، ليشعر سكان هذه المدينة بعودة شيء كبير افتقدوه خلال الحرب الطاحنة التي جرت هنا.

الخاتمة

أخيراً، بذلت المديرية العامة للآثار والمتاحف جهوداً حثيثة في مدينة حلب، خلال الأزمة وبعدها، للحدّ من تأثيراتها الراهنة على الآثار، وحققت نجاحًا على عدة أصعدة بجهود كوادرها، أولها حماية مقتنيات المتاحف في حلب على غرار المتاحف الأخرى في سورية ونقلها إلى أماكن آمنة.

فبعد مرور أكثر من عشر سنوات من الأزمة السورية، وما حلّ بالتراث الثقافي لهذا البلد من خراب كبير، فإن الإمكانات المتوفّرة حاليًا على المستوى الوطني للتغلّب على صعوبات إعادة إعمار مدينة حلب غير كافية. وكما أشرنا سابقًا، وبعد مرور أربعة أعوام من توقّف الحرب في حلب، أن مستوى تنفيذ مشاريع الترميم ما يزال دون ما تبلغ نسبته العشرة بالمائة من مجموع الأضرار التي أصابت هذه المدينة. لذا، فإنه لاستعادة تراثنا الثقافي والعمراني الذي تعرّض للتدمير أو التخريب في هذه المدينة خلال الحرب، ينبغي أن تتضافر الجهود بين الجهات الوطنية المعنيّة بحماية التراث الثقافي والمؤسسات العالمية لتأمين الدعم الفنّي والمادّي عند تصميم مشاريع الحفظ الثقافي وتنفيذه بطريقة علمية تحمي أصالة التراث الثقافي في مبانيها وأحيائها المتضرّرة.

شکر

نتقدّم بجزيل الشكر للجهود المتميّزة التي بذلها "إيكروم-الشارقة"، ونرفع بشكل خاص عبارات الشكر والتقدير لمدير المكتب الإقليمي لمنظمة إيكروم الدكتور زكي أصلان وفريقه، لتنظيم هذا المانقى العربي الثاني تحت عنوان: "الأصالة والمجتمع والحفظ في الفكر العربي"، ولإتاحة الفرصة لنا للمشاركة فيه والتعريف بالتحدّيات التي تواجه التراث الثقافي السوري بعد الحرب.

المراجع

- ABDULKARIM M., Archaeological Heritage in Syria During the Crisis 2011-2013, Ministry of Culture, Damascus, 2013.
- ABDULKARIM M., L. KUTIEFAN, (Scientific Supervisor), *Syrian Archaeological Heritage, Five Years of Crisis*, Damascus, 2016. (Arabic & English languages).
- Banshoya, G. and David, J. C. 1973. Le projet d'aménagement de la vieille ville d'Alep [The planning project of the Old City of Aleppo]. L'Architecture d'aujourd'hui, Vol. 169, pp. 84–85. (In French.)
- David, J-C. and Grandin, T. 1994. L'habitat permanent des grands commerçants dans les khans d'Alep à l'époque Ottoman. [The permanent habitat of the great traders in the khans of Aleppo during the Ottoman era] D. Panzac (ed.) In: Les Villes dans l'Empire Ottoman: activités et sociétés, Vol 2. Aix-en-Provence, IRENAM-CNRS, p. 84–124. (In French)
- Sauvaget, J. 1941. Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne, des origines au milieu du XIXe siècle. [Aleppo: Essay on the development of a large Syrian city, from its origins to the mid-nineteenth century]. Paris, Librarie Orientaliste Paul Geuthner. (In French)
- UNESCO UNITAR, Five Years of Conflict: The State of Cultural Heritage in the Ancient City of Aleppo, UNESCO- Paris, 2018.



المتحف الغلسطيني والأصالة في سياق التُّراث الحَيِّ

د. عادلة العايدي - هنيّة

المتحف الفلسطيني مؤسسة تقافية مستقلة، مُكرسة لتعزيز ثقافة فلسطينية منفتحة وحيوية على المستويين المحلّي والدولي. تتمثّل رسالة المتحف في إنتاج تجارب معرفية تَحرّرية عن فلسطين ونشرها، شعبًا وثقافةً وتاريخًا، بمنظور جديدٍ من خلال برامج مُبتكرة. وجدير بالذّكر أنّ المتحف هو أحد أهم المشاريع الثقافية المُعاصرة في فلسطين، وأحد أهم مشاريع "مؤسسة التعاون" وهي مؤسسة أهلية فلسطينية غير ربحية تَهدف إلى توفير المساعدة التنموية والإنسانية للفلسطينيين في الضفة الغربية بما فيها القدس وقطاع غزة والمناطق والأراضي التي تمّ احتلالها عام 1948، فضلاً عن التجمّعات الفلسطينية في لبنان.

وانطلاقًا من وضع المتحف بوصفه مؤسّسة غير حكوميّة تعمل تحت الاحتلال، منقطعة جغرافيًا وسياسيًا عن أعداد كبيرة من جمهور ها المُحتمل، أي في قطاع غزّة والشّتات، فقد طَوّرَ المتحف، منذ افتتاحه الرسمي عام 2016، توجّهيْن اثنيْن لعَملِه: توجّه عمليّ يَقنيّ، وآخر فكريّ.

فضمن التوجّه العمليّ التقنيّ، تمّ تطُوير بُنْية المتحف بوصفها مؤسّسةً مُعاصرةً عابرة للحدود، وذلك عبر استغلال تقنيّات التواصل الإلكتروني بهدف نقل الرواية الفلسطينية التاريخيّة والتعريف بتجارب الإنسان والمجتمع الفلسطيني الحيّ ونقلها إلى العالم من خلال عدّة مواقع إلكترونيّة. كما تمّ نشر مشاريع الأرشفة الرَّقميّة، ومعارض الواقع الافتراضي، واستغلال منصّات التواصل الاجتماعيّ للتوْعية وللبرامج.

أمًا فِكريًا، فتوجُّهُ المتحف يتمثَّل في العمل بوصفه مؤسّسةَ حشدٍ وتعبئةٍ أكثر من كونه مؤسّسة احتفاءٍ استرجاعيّ لمخيال جمعيّ تراثيّ مُغلق. فالمبادئ التوجيهيّة التي تحكم إنتاج المحتوى للمتحف في عدّة قوالب، من معارض وبرامج تعلُّميّة وإنتاج بحثي وفكري، تصبُّ في نشر مضامين ومحتوى معرفيّ تحرّريّ وتوزيعها من خلال عدّة روايات جامِعة، لا إقصائيّة، مفتوحة ومتعدّدة، تبتعد عن فَرْضِ رواية مُهيْمنة وثابتة للفلسطينيّين، وذلك لتعزيز الفضول والرغبة بالتعلُّم والاكتشاف.



◄ الشكل 1:
 المتحف الفلسطينج
 في بيرزيت

يُترجَمُ هذا التوجّهُ في عدّة برامج، كمعارض أقامها المتحف بمقاربات غير تقليديّة، مثلًا، حول مواضيع متنوّعة مثل القدس الحديثة والقدس في الحداثة والعوْلمة، وحول الثَّوب التقليديّ الفلسطيني من منظور محدد أثر تحوّلات التاريخ السياسي والتحوّلات الاجتماعيّة والماديّة على إنتاجه وتمثيله، فضلاً عن مَعْرضيْن حول تمثُّلات الفضاء والأرض والانتماء والتهجير في التصميم وفي الفنون البصريّة الفلسطينيّة الحديثة والمُعاصرة. وتقوم كافة هذه المعارض على مقولة بحثيّة كما تستند إلى عرض المقتنيات، وترافقها برامج سنويّة موجّهة لكل فئات المجتمع العُمريّة، والخلفيّات الثقافيّة، والاهتمامات، والتخصيصات.

إضافةً إلى هذه البرامج الثابتة، نسبيًا في القالب، والمتغيّرة بديناميكيّة في المحتوى، يُدير المتحف عددًا من المشاريع المُركّزة التي من شأنها حفظ التاريخ الفلسطيني الحديث والروايات التي يحملها، منها: مشروع وموقع "رحلات فلسطينيّة"، ومشروع وموقع "الأرشيف الرّقمي"، وكذلك مشروع "ستوديو التّرميم من أجل الرّقمنة"، و"البرنامج التعليميّ للمتحف".

يُشكّل موقع رحلات فلسطينيّة، وهو عبارة عن منصّة رقميّة، مساحةً مفتوحةً لاستعراض التجربة الفلسطينيّة بجوانبها المُتعدّدة، زَاخرةً بالوقائع التاريخيّة والبنيّر الذاتيّة والأحداث والقصص التي لم تُكتشف بعد، والتي تسعى مُجتمعةً، إلى تكوين رواية شاملة مُتنامية تُبرز الدّور الفعّال الذي لعبه الفلسطينيّون في صنع تاريخهم.

يسعى المشروع جاهدًا لاستحضار قصص المقاومة والصمود والأمل المغيّبة عن الرواية الفلسطينيّة المُتداولة عالميّا، وهو مشروع مُشترك بين المتحف الفلسطيني ومؤسّسة الدّراسات الفلسطينيّة، ويعدّ موسوعة حيّة ومُتجدّدة في متناول الجميع.

يعدُ الأرشيف الرَّقمي للمتحف الفلسطينيّ، الذي تم نشره على موقع إلكترونيّ، أرشيفًا مفتوحًا أمام الجمهور، قابلًا للتحديث باستمرار، هدفه توثيق مجموعات مقتنيات من التاريخ الاجتماعي الفلسطيني من خلال وثائق لأفراد ومؤسّسات من يوميّات وسِجلّات وصور فوتو غرافيّة وأفلام وتسجيلات صوتيّة، ومواد أُخرى مُهمّة مُهدّدة بالضّياع أو التلف أو المصادرة، وذلك من خلال حفظها بشكلِ رقميّ لتكون مُتاحة أمام الباحثين والفنّانين والجمهور العام.

يُعدّ "مشروع استوديو التَّرميم من أجل الرَّقمنة" مشروعًا يهدف إلى ترميم التراث الثقافي في فلسطين وحمايته. ويعمل المشروع بشكلٍ أساسيّ، على إعادة ترميم مجموعات من مقتنيات الوثائق المُهدّدة بالتَّاف أو الانقراض ومُعالجتها وحفظها، وهي مُتعلِّقة بالتاريخ والتراث الثقافي الفلسطيني. وقد نجح المشروع في معالجة آلاف الوثائق التي تنتمي لمجموعات مقتنيات خاصة ومجموعات مقتنيات تملكها مؤسسات كما نجح في حفظها، مثل الرسائل والخرائط والمذكّرات والصُّور الفوتوغرافيّة، وغيرها، ومن ثم أخذت نسخ رقميّة واضحة عنها، ثمّ تمت إعادتها إلى أصحابها لبثّ الحياة فيها مجددًا. وفي هذا السِّياق، يحصل المتحف على مجموعات مقتنياته عن طريق باحثين متخصّصين في التاريخ الفلسطيني، أو من خلال جلب أفراد من الجمهور لمجموعات مقتنياتهم الخاصّة للمتحف.

كما تضمَّنَ هذا المشروع بناء أوّل استوديو من نوعه في الضفّة الغربيّة لترميم الوثائق الورقيّة التالفة والمُهدّدة وحفظها، ولدعم قدرات موظّفي المتحف وبنائها وتعزيزها في مجال مبادئ وممارسات معالجة مجموعات المقتنيات الأرشيفيّة المُتضرّرة وحفظها، وصولاً لإعدادها لمرحلة الرَّقمنة. كما يُصمّم المتحف برنامجًا عامًا وبرنامجًا تعليميًّا مُرافقيُن لمعارضه، بهدف زيادة الوعي بممارسات حماية التّراث الثّقافيّ، وذلك من خلال سلسلة من الورشات المُتخصّصة والمُحاضرات والجولات والفعاليات المتنوّعة.

ومن البرامج الفارقة التي يُقدَمها المتحف الفلسطيني ما يُنقذ عبر وحدة البرامج والفعاليّات التعليميّة، التي تُدير مئات الزيارات المدرسيّة لعشرات الآلاف من طلبة المدارس الحكوميّة والخاصيّة ومدارس وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين - الأونروا، وهي المدارس الموجودة في مخيّمات اللّجوء، فضلاً عن مدارس من مناطق نائية ومناطق مُهدّدة بالاستيطان. وتتضمّن هذه الزيارات برامج تدريبيّة المُعلّمات والمُعلّمين، ونشر كُتيّبات تَوعويّة لتيسير نشاطات غير منهجيّة. وقد توسّع هذا البرنامج مؤخّرًا بإطلاق عدّة ورشات مركّزة لتعزيز الفكر الحُرّ ولإطلاق مواهب الطلّبة، ولنشر قصص أطفال، إضافة إلى عدّة ورشات فنيّة مُتعدّدة الوسائط والفنون، يُشارك فيها الطّفل وجاهيًا وإلكترونيًا في صناعة المعرفة.

المتحف الفلسطيني والأصالة في سياق التُراث الحَي

◄ الشكل 2: فعالية تعليمية للطلاب في المتحف الفلسطيني



تَصبُّ فلسفة البرنامج التعليمي في صميم الفلسفة الجامِعة ذاتها للمتحف الفلسطيني ورسالته، إذ يسعى البرنامج إلى توفير سياقات تعزِّز التعلَّم حول تاريخ فلسطين وثقافتها من منظورٍ مُغاير، وتهدف إلى بناء جوِّ تعلَّمي مُتكامل بحيث يكون المربّية والمتعلِّم المتعلَّمة جزءًا أساسًا من إنتاج روايات حول فلسطين. تَنبثقُ هذه الغاية من تطبيق قيّم المتحف، وهي سهولة الوصول إلى المحتوى، وتقديم محتوى فكريّ ونوعيّ موثوق المصادر، والحرص على الشفافيّة، والاستقلاليّة في إنتاج المحتوى، وبثّ الأمل والإلهام في أجيال المجتمع المختلفة.

أما القيّم التعلّيميّة التي يعزّزها المتحف الفلسطيني في كافة البرامج والورشات والمصادر التعليميّة التي يصمّمها، وخلال تفاعله مع المتعلّمين، فهي:

- العمل الجماعي؛ يُنفّذ المتحف ورشات بين أجيال مختلفة، ونشاطات تُشرِك كلّ أفراد العائلة، وفعاليّات تدمج المُعلّمين مع طلبتهم، ويحرص كل برنامج على إشراك الفئات المستهدفة في عمليّة تصميم البرامج عبر تخصيص جلسات يناقش فيها المتعلّمون تصوّراتهم حول ما ير غبون في تعلّمه في بداية كلّ برنامج، والذي يُحدَّد مساره فيما بعد. كما يحرص البرنامج أيضًا على تعزيز العمل ضمن مجموعات.
- الحوار لبناء معرفة مشتركة؛ يَخلقُ البرنامج التعلَّمي مناخًا تعلَميًّا يتساوى فيه الجميع، وتنتفي فيه إمكانيّة ممارسة أيّ فرد لأي شكل من أشكال السلطة على الآخرين، فيُعزّز ثقافة السوّال، كما يوفّر سياقات تعزّز فهم الفلسطينيّين للاضطهاد الذي يمارَس عليهم سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا، وبالتالي يصبح بإمكانهم بناء استراتيجيّات لمقاومته.

يُصمّم البرنامج أيضًا برامج تستهدف الفئات المُهمّشة وتراعي مصالحهم، وذلك بهدف الإسهام في بناء مجتمع فلسطيني تعمُّه العدالة الاجتماعيّة من خلال تحفيز الفكر التَّحرريّ، هذا بالطبع إلى جانب اتباع منهج التعلُّم التشاركي، ودمج المرح واللّعب بالتعلُّم، لتحفيز المشاركين على تعزيز الثَّقة بقدراتهم.

يعمل المتحف الفلسطيني، ضمن منطق هذه المفاهيم، في سياقه الجغرافي المُعقَد والسّياسيّ الفريد، للحفاظ على الأصالة من خلال حفظ التراث غير المادّي المعرفي والثقافي الفلسطيني وتوثيقه ونشره بتوجّهات تَعدّدية ومنفتحة وتشاركيّة. ويتماشى هذا النهج مع المحتوى الذي تَحمله برامج المتحف، إذ أن الروايات التي يُقدّمها هي روايات تفاعليّة خطّية وغير خاملة؛ فإظهار غنى العلاقات الإنسانيّة وتنوّعها وتغيّرها على أرض فلسطين، وإبراز عامل الإنجاز والتغيّر عبر الزمن، هو بالتحديد ما يبعث الأمل في البدائل المستقبليّة إذ يُسْهم هذا التركيز على التغيير والتنوّع في الوقت ذاته، في إظهار أدوار الناس التي يمكن أن يلعبوها في تشكيل تاريخهم ومستقبلهم بأنفسهم.

د. مي الإبراشي

في شهر حزير ان/يونيو عام 2012، تجمّع حوالي ثمانين شخصًا عند السور الخارجيّ لمسجد أحمد بن طولون في حيّ الخليفة في القاهرة التاريخية. وقد ضمّ التجمّع أعضاءً من المجتمع، وممثّلين عن الحكومة، ومجموعة من المهنيين والأكاديميين العاملين في مجال التراث. وكان الغرض من التجمّع هو الإعلان عن إطلاق مبادرة تسمّى باللهجة المصرية "الأثار لينا" (الأثار لنا) تهتم بمسألة ملكية التراث.

وقد تمّ تخطيط هذه المبادرة لدراسة إمكانات منطقة شارع الخليفة التراثية ومدى القدرة على استخدامها كموردٍ يعود بالفائدة على المجتمع، فيتشجّع الناس عندئذٍ على الاهتمام بها. تمثّلت الفرضية في أن الناس سيكونون شركاء فاعلين في حفظ تراثهم والحفاظ عليه إذا ما شعروا أنهم يمتلكونه، فهذا الشعور بالملْكية ينبُع من الشعور بالمنفعةِ المتبادلة.



✓ الشكل 1:
 ورشة عمل بحث
 تشاركي في مسجد
 أحمد بن طولون

وشارع الخليفة هو الجزء الجنوبي من القصبة، أي العمود الفقريّ الرئيسيّ للقاهرة التاريخيّة. تقع منطقة شارع الخليفة غرب قلعة صلاح الدين بالقاهرة، وتتميّز حدودها الشمالية بمسجد أحمد بن طولون الشهير في القاهرة، وهو أقدمُ مسجدٍ في مصر احتفظ بملامحه الأصليّة. ويمتدّ الشارع جنوبًا إلى مقبرة السيدة نفيسة حيث يقع ضريح السيدة نفيسة بنت الحسن حفيدة النبي محمد.

ويشير اسم الخليفة التاريخي وهو "المَشاهِد" إلى الأضرحةِ (مشْهَد) المخصّصة لأحفاد النبيّ محمد وسلالته التي تهيمن على شوار عها، والعديد منها بات الأن عبارة عن آثارٍ مُدْرجةٍ على لائحة التراث العالمي. وتقع منطقة شارع الخليفة ضمن الحدود الإدارية لمنطقة الخليفة.



▶ الشكل 2: منطقة شارع الخليفة من مئذنة السيدة سكينة

تصوّر المشكلة - 2012

بعد اطلاق المبادرة، وعلى مدى أكثر من ستة أشهر، انضم حوالي ستين ممثلاً عن أصحاب المصلحة والمستفيدين إلى سلسلة من الأنشطة البحثيّة التشاركيّة التي قامت بها المبادرة أ. وقد طرح المشاركون أفكارًا لمواقع تراثية مختلفة في شارع الخليفة لتصبح محفّزات للتغيير الإيجابي. واقترحوا الترميم وإعادة الاستخدام التكيّفي للأثار المدرجة ومحيطها في الوظائف التي تخدم المجتمع. كما اقترحوا إجراء تحسينات بيئية، مثل تحديث نظام إدارة النفايات، تغيد السكان والتراث على حدٍ سواء. كما أسفرت ورشاتُ العمل عن وضع توصيات تتعلق بأهمية التربية التراثية لإحداث ارتباط وملكيّة للتراث في سنّ مبكّرة.

وقد عُرضت تلك التوصيات على الجمهور للنظر فيها ومناقشتها. وكان هذا التمرين، الذي استمرّ ستة أشهر في المناقشة بين أصحاب المصلحة المستفيدين، تجربة غنيّة بالمعلومات ومرْضية شجّعت منظّمي المبادرة على مواصلة العمل بناءً على النتائج. وتعمل المبادرة في منطقة شارع الخليفة منذ ذلك الحين، وتعمل منذ عام 2015 في المنطقة الأوسع من منطقة الخليفة، وققًا للتكليف الذي تمّ تطويره في ورشات العمل لعام 2012.

- تشجيع تعليم التراث للأطفال والأسرة بأكملها وتعزيز الشعور بملكية التراث في سن مبكرة.
 - حفظ المواقع التراثية وتكييفها لإعادة استخدامها لصالح المجتمع.
- وضع تراث الأرض في السياق الاجتماعي والاقتصادي لسياقها الحضري واستخدامه لتحفيز تحسين نوعية الحياة والفضاء الحضري.

تتمّ ترجمة هذا كله إلى أنشطة في مجالين اثنين هما:

- التنمية الحضرية
- الصناعات التراثية

تتم إدارة مبادرة "الأثار لينا" من قبَل كلّ من مؤسسة اسمها "مجاورة" وهي شركة معمارية متخصصة في التراث الثقافي، وجمعية "بناء البيئة الجماعية"، وهي منظمة مصرية غير حكومية. أما شركاؤها الحكوميون الرئيسيون فهم وزارة السياحة والأثار المصرية وحكومة القاهرة. وتقوم المبادرة بجمْع الأموال على الصعيدين المحلّي والدولي لمعظم أنشطتها، وهي تعمل الآن على تحقيق الاستدامة الجزئية من خلال الأنشطة المدرّة للدخل القائمة على التراث مثل الحِرَف اليوية والجولات التراثية.

انطلاق مرحلة التنفيذ، 2013-2015

في عام 2013، بدأت مبادرة "الأثار لينا" العمل في أول مشروع تعليميّ تراثيّ. وعلى مدار فصلْلٍ دراسيّ واحدٍ، أقامت المبادرة شراكة مع مدرسة ابتدائية محلية، وعملت مع أطفال المرحلة الابتدائية الرابعة والخامسة في أنشطةٍ أسبو عية تشجّعهم على التعلّم بشكل تفاعليّ عن تراثهم من خلال جولات الحرف والفنون والدراما والألعاب في المعالم المحلية المدرجة.

وقد نحت الأطفال تصاميم هندسية مستوحاة من الفنّ الإسلاميّ في ألواح الجبس، وصنعوا أعمالاً فنيةً تصوّر منطقتهم. كما مثّلوا قصة الملكة شجرة الدّر التي سمّيت مدرستهم باسمها، وشاركوا في البحث عن الكنْز الموجود في مسجد ابن طولون الذي علّمهم تاريخه وهندسته المعمارية.



◄ الشكل 3:
 الأنشطة الحرفية مع
 أبناء مدرسة شجرة
 الدرّ الابتدائية

في أواخر عام 2013، بدأت مبادرة "الآثار لينا" العمل في أول مشروع ترميم لحفظ ضريح شجرة الدرّ الذي يعود تاريخه للقرن الثالث عشر². وتخلّد هذه القبّة ذكرى حاكمةً مصر الوحيدة في عصر الحكم الإسلامي. وتعدّ شجرة الدرّ من أشهر الشخصيات التاريخية في تلك الحقبة. وتقع قبّتها في وسط شارع الخليفة، وجاء القرار بأن تكون القبّة أول مشروع ترميم، بناء على توصية من ورشات العمل التشاركية التي عقدت عام 2012. وساد شعور بأن هذه القبّة هي قبّة مركزية ومبدعة ومتميّزة بما يكفي لتؤهلها بأن تكون المشروع الأول. والأهمّ من ذلك، تمثّل في أن التوصية شملت مشروع تجديد مبنىً مهجور ملحقًا به يعود تاريخه إلى مطلع القرن العشرين.



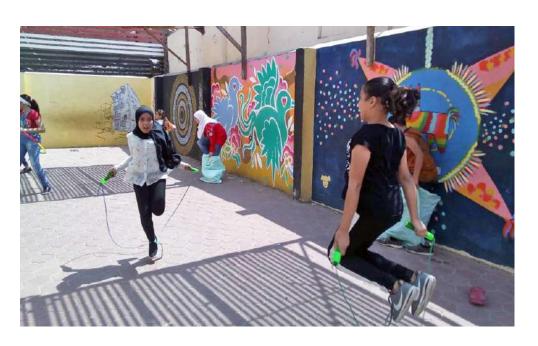
◄ الشكل 4: معرض الحرف اليدوية في مركز الخليفة المجتمعي

وقد عمل هذا المسجد غير المكتمل بوصفه مركزًا مجتمعيًا، ثم بوصفه عيادة إستشفائية من عقد الخمسينيات وحتى عقد التسعينيات. وقد أصرّ الأهالي بشدة على إعادة فتحه كعيادة ومنشأةٍ لرعاية الأطفال. ومن خلال الجمْع بين حفظ نصئبٍ تذكاريّ مدْرجٍ على لائحة التراث العالمي مع تنشيط أحد الأصول المجتمعية، ستنجح مبادرة "الأثار لينا" في تقويضها المغلن لتحويل التراث إلى محرّكٍ لتنمية المجتمع.

تضمّن مشروع حفظ موقع شجرة الدرّ حفظ أجزاء البناء، وتنظيفها، وتوحيدها، وإصلاح الجصّ المنقوش والخشب المزخرف، وعرْضِ الموقع. والأهم من ذلك يتمثّل في أن فريق الترميم كشف عن أنماطِ زخارف عربيةٍ-أرابيسك، وهندسيّة جميلةٍ مطليّةٍ باللون الأخضر الداكن على طول محيط الأسطوانة الداخلية للقبّة.



الشكل 5:
 الكشف عن الزخرفة
 متعددة الألوان المرسومة
 على الجزء الداخلي
 من قبة شجرة الدر



✓ الشكل 6:
 ميدان وملعب درب
 الحصر لكرة القدم

وخلال مشروع حفظ قبّة شجرة الدرّ الذي استمر مدة عاميْن، والذي أنجز بتمويل من مصادر محليّة، نقذت مبادرة "الأثار لينا" إصلاحات طفيفة في مركز الخليفة المجتمعيّ، وأعادت افتتاحه كمساحة لمخيّمها الصيفيّ التراثيّ. ويقام هذا المخيّم سنويًا لأطفال شارع الخليفة مجانًا، وتتكرّر مشاركة الكثير من هؤلاء الأطفال عامًا بعد عام. ويتمّ تشغيل المخيّم بمساعدة المتطوّعين والمتدرّبين من الطلاب، كما يتمّ تمويله من التبرّ عات المحليّة وعائدات النزهات النزهات التراثية وأنشطة المدارس الخاصة ومن بيع منتجات مستوحاة من منطقة الخليفة.

وقد كان هذا النوع من جمْع التبرّعات أول نشاط لمبادرة "الآثار لينا" في الصناعات التراثيّة ولكنها لم تكن الأخيرة. ففي عام 2013، وضمن حدث جرى للاحتفال بإطلاق "مشروع حفظ شجرة الدرّ"، تمّ تنظيم حدث يسمّى "إقضي يومك في منطقة الخليفة"، وذلك الترويج لموقع الخليفة التراثيّ. وقد تضمّن هذا الحدث الترويج لمدينة الخليفة كوجهة تراثية. وشمل البرنامج سرد قصص للأطفال، وجولات مسيّرة بمرشدين، وأنشطة للأطفال، وسوقًا للحرف المحلية. وقد جلب الحدث متطوّعين للمساعدة في رسم أول جدارياتٍ مستوحاةٍ من التراث، وتضمّن خريطتين تعرضان تراث الخليفة، وتسلّطان الضوء على حقيقة أن المنطقة هي أكثر من مجرّد آثار 3.

تم تصميم اللوحات الجدارية من قبل فنانة الغرافيتي الأستاذة أغنيس ميتشالزيك، ومصمّم الغرافيك الأستاذ هاني محفوظ. وقد استند ذلك الجهد على ورشة عمل لرسم خرائط لقصص منطقة الخليفة ومعالمها المخْفيّـه وتستمرّ مبادرة "الأثار لينا" في تنظيم هذا الحدث سنويًا، وهي تعمل حاليًا على الإعداد والتخطيط لتكرارها للمرة الثامنة.





◄ من اليمين إلى اليسار الشكل 7:
 راوية القصص شيرين
 الأنصاري في قضاء
 اليوم في خليفة 1

الشكل 8: جدارية تصور خريطة مع معالم آل خليفة



◄ الشكل 9:
 بابير ماتشي الكرة
 الأرضية مستوحاة من
 بيضة النعام المزينة في
 متحف غاير أندرسون
 ـ فوس ها في المتحف

ونظرًا لأن فريق مبادرة "الأثار لينا" أصبح أكثر مهارة في تصميم الأنشطة التراثية وتنفيذها، فقد تم تكليفه بإدارة مشروع يهدف للجمع بين الأطفال اللاجئين الأتين من سورية، والأطفال المصريين معًا في إطار برنامج مدّته ستة أشهر يستخدم التراث لمعالجة قضايا الغربة? فمن خلال تعليم الأطفال القيم الثقافية المشتركة تاريخيًا مثل الأسرة والسفر واللّعب، قادتُهم مبادرة "فسحة الآثار لينا" إلى فهم أنفسهم من حيث أنهم جزءٌ من تجربة إنسانية مشتركة متجذرة في تاريخ مشترك. وقد تم تجميع كافة الأنشطة في حزمة أدوات باتت الأن متاحة على شبكة الإنترنت، وتم تفويض المرحلة الثانية من مبادرة "فسحة" وإدارتها من قبل مكتب منظمة اليونسكو في مصر في عام 2016. في هذا المشروع القصير لتدريب الأطفال، تم تدريب المشاركين العاملين في المتاحف والمنظمات غير الحكومية

لتعليم الأطفال على تصميم وتنفيذ أنشطة تعليم التراث باستخدام مجموعة مقتنيات متحف جاير أندر سون في منطقة شارع الخليفة كمصدر للوحْي والإلهام.

في مطلع عام 2016، وفي إطار مبادرة "إقضي يومك في منطقة الخليفة" نظمت مبادرة "الأثار لينا" حدثًا استعراضيًا للاحتفال بانتهاء "مشاريع حفظ موقع شجرة الدرّ"، ومشروع "فسحة" ومشروع آخر لحفظ مزارات السيدة رُقيّة "والجعفري" و"عتيقة"? وقد اهتم هذا المشروع، الذي استمرّ سنة واحدة، أكثر بإصلاح البناء في حال الطوارئ وركّز على موضوع الحفظ الطارئ للجصّ المنحوت الواسع الذي يزيّن القبة من الداخل.

يحتوي موقع السيدة رُقَية وحده من الداخل على خمسة محاريب، أحدها هو أكبر محراب مصنوع من الجصّ في مصر. ولقد عرّفنا العمل في هذا المشروع أيضًا على أهم مشكل من مشاكل البنية التحتية التي يواجهها الحيّ، وهي مشكلة ارتفاع المياه الجوفية.



◄ الشكل 10:
 الحفاظ على محراب
 ضريح السيدة رقية

التعامل مع التعقيد الحضري (2015 حتى الوقت الحاضر)

إلى جانب التعاون مع فنّاني الغرافيتي لتنفيذ جداريات أخرى في منطقة الخليفة، لم يتم عمل الكثير على المستوى الحضري في العاميْن الأوليْن من عمل مبادرة "الآثار لينا". ففي عام 2015، بدأت مبادرة "الآثار لينا" دراسة حضرية لمنطقة شارع الخليفة⁸، فعيّنت الحدود وأعدّت خرائط موضوعية محدّثة لجميع المباني الموجودة داخلها، مع التركيز على عُمر المبنى وحالته ووظيفته. كما درست التكوين الديموغرافي والاجتماعي والاقتصادي للمنطقة. وبناء على النتائج قرّرت مبادرة "الآثار لينا" التركيز على موضوعيُ إدارة النفايات وارتفاع المياه الجوفية باعتبار هما مشكلتين نظاميتين للبنية التحتية تضرّان بالتراث وبالناس على حدّ سواء.

ولقد تعاونت مبادرة "الأثار لينا" مع جامعة القاهرة ومحافظة القاهرة لدراسة نظام إدارة النفايات في المنطقة واقتراح تغييرات في السياسة تجعله نظامًا أكثر كفاءة. كما بدأت في تطوير نهج ذي شِقَيْن لمعالجة المشاكل الحضرية. وحدّدت مبادرة "الأثار لينا" احتياجات تغيير السياسات، ودعت الحكومة إلى تنفيذها. وضمن هذه الصورة الأكبر، حدّدت أيضًا تدخّلات أصغر تعتمد على المكان يمكن أن تنفّذها مبادرة "الأثار لينا" نفسها. وكنتيجة ثنائية لدراسة إدارة النفايات، بدأت مبادرة "الأثار لينا" بتنفيذ "برنامج المساحات المفتوحة" لتحويل قطع الأراضي المهجورة إلى مساحات للرياضة والترفيه. وبالتعاون مع محافظة القاهرة، وبتمويل حكومي وتمويل من المؤسسات الاجتماعية، تم تحويل قطعتي أرض إلى ملاعب كرة قدم ".



✓ الشكل 11:
 ميدان وملعب درب
 الحصر لكرة القدم

كما شكّل ارتفاع المياه الجوفية تحديًا أكثر تعقيدًا. فمنطقة الخليفة تسبح في بحر من المياه الجوفية التي تنتُج في الغالب عن تسرّب من أنابيب إمدادات المياه مع بعض التلوّث من مياه الصرف الصحّي. وهذه مشكلة منتشرة في القاهرة التاريخيّة، والرطوبة المِلْحيّة هي أحد الأسباب الرئيسية للضّرر الذي لحق بالعمارة التاريخية في القاهرة. إنّ أحد الحلول المحلية المعيارية للأثار والمعالم التي تغمر ها المياه والمدرجة في القائمة، يتمثّل في نزع المياه منها.

ونزع المياه هو عبارة عن عملية تركيب أنابيب مثقوبة تحت الأرض لتجميع المياه الجوفيّة التي تدخلُ إليها بسبب تفاضلُ الضغط بين التربة وداخل الأنابيب. وتنحدر الأنابيب نحو غرف التجميع تحت الأرض حيث المضخّات المغمورة التي تضخّ المياه إلى شبكة الصرف الصحى. وفي أكبر المفارقات، تفقد مدينة فقيرة بالمياه مثل القاهرة ما لا



▶ الشكل 12: غمر المياه الجوفية في مدينة الخليفة

يقل عن نسبة ثلاثين بالمائة من مياه الشرب المعالجة حيث تتسرّب إلى الأرض، ثم يتم إنفاق المزيد من الطاقة لضخّها مرة أخرى في النيل عبر نظام الصرف الصحيّ المُثقل.

وبالتوازي مع الدعوة إلى حلِّ واضحٍ لإصلاح أنابيب الإمداد ومنع التسرّب، عملت مبادرة "الأثار لينا" على ابتكار حلّ لاستخراج هذه المياه وإعادة استخدامها للريّ والتنظيف وإخماد الحرائق.

وفي عام 2016، أطلقت مبادرة "الأثار لينا" مشروع أبحاث المياه الجوفية الذي يركز على حلول معالجة أضرار الرطوبة المِلِّحيّة في المباني التاريخية، وعلى الحلول التكاملية المبتكرة لاستخراج المياه الجوفيّة وإعادة استخدامها. كما نظمت مدرسة حفظ لترشيد أضرار المياه الجوفيّة والملوحة، ومدرسة تصميم دولية لتصميم مشروع لدمج نزع المياه من قبّتيْن مملوكيّتيْن مغمورتيْن بالمياه في القطاع الجنوبي من الشارع مع أنشاء حديقة تبلغ مساحتها ثلاثة ألاف متر مربّع، وسوف يتمّ ربّها باستخدام المياه الجوفيّة المستخرّجة 10.



▶ الشكل 13: مدرسة ARCE للحفاظ على أضرار المياه المالحة والجوفية في المباني التاريخية

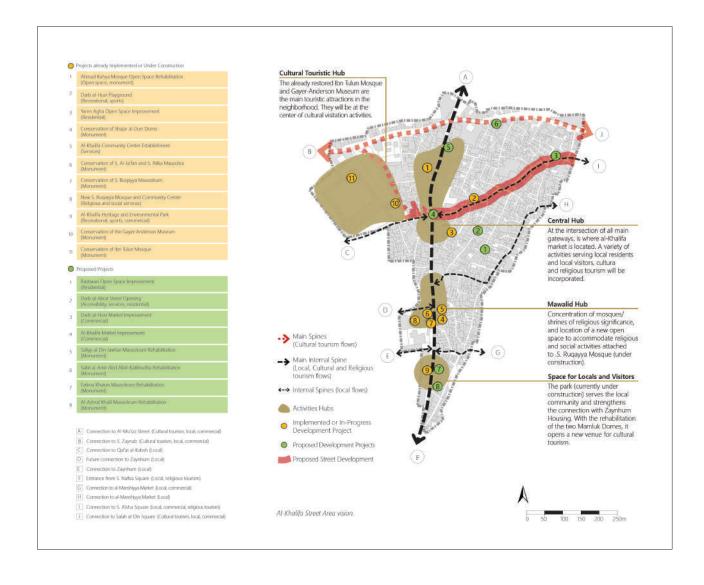
✓ الشكل 14: حديقة الخليفة للتراث والبيئة



كما تمّ أيضاً تطوير اقتراح تصميم الحديقة بالتعاون مع إحدى الشركات المعمارية، ويتم حالياً تنفيذ المرحلة الأولى من قبل محافظة القاهرة ومبادرة "الأثار لينا"1. وقد أدّى هذا الاهتمام بربط التراث بالبيئة أيضاً إلى ظهور برنامج بسنتنة حضريّ ناشئ للنساء. وتعدّ المرحلة التالية، التي تشمل مرافق رعاية الأطفال والرياضات النسائية، خطوة أخرى في إنشاء مساحات وخدمات عمومية تشتد الحاجة إليها موجّهة للنساء والأطفال في سنّ ما قبل المدرسة.

✓ الشكل 15:
 رؤية لإحياء حي الخليفة
 كحي تراثي - مشاركة
 المواطنين في مشروع
 القاهرة التاريخية

في عام 2019، وضمن إطار مشاركة المواطنين في مشروع القاهرة التاريخية¹²، قامت مبادرة "الأثار لينا" بإعادة تخطيط مباني منطقة شارع الخليفة، ورسم خرائط لمساحاتها المفتوحة، وصقل دراساتها الموضوعية واستخدامها كأساس للحفظ والإدارة. وقد وضعت المبادرة خطّة لحفظ المنطقة وإدارتها ككلّ باستخدام المنهجيّات التي طوّرها مشروع اليونسكو للتجديد الحضري للقاهرة التاريخية¹³.





◄ الشكل 16:
 مدرسة آثار لينا للتفكير
 التصميمي التراثي

توفّر خطة الحفظ والإدارة هذه إطارًا للتدخّل على نطاق حيّ معيّن، وهو ما يمكن تكراره في أحياء أخرى في القاهرة التاريخية. وتؤمن مبادرة "الأثار لينا" إيمانًا راسخًا بضرورة استكمال التدخّلات الحضرية بمقاربات معتدلة تعالج القضايا الاجتماعية والاقتصادية المرْمِنة، وأنه بإمكان التراث أن يلعبَ دورًا في ذلك أيضًا.

وفي عام 2018، تمّ إطلاق مشروع "مدرسة الأثار التراثية للتصميم والتفكير" التابعة لمبادرة "الأثار لينا" بهدف التركيز على الصناعات التراثية 14. وتقوم المدرسة أيضاً بتدريب المراهقين والمصمّمين الشباب والجرقيين والمهنيين التراثيين على منهجيّات التصميم لتطوير منتجاتٍ وأنشطة مستوحاةٍ من التراث يمكن أن تدرّ إيرادات. كما تدير مدرسة التفكير والتصميم برامج منفصلة لفئتين عمريّتين، وقد تعهّدت بمخيم الخليفة الصيفي وببرنامج "إقضي يومك في شارع الخليفة" كجزء من نطاق عملها. ويتم تسويق منتجاتها وأنشطتها من خلال موقع إلكتروني يروّج لمنطقة الخليفة تراثية تو

التوسّع الجغرافي (2016 إلى الوقت الحاضر)

في عام 2016، وسمّعت مبادرة "الأثار لينا" نطاق عملها الجغرافي ليشملَ مقبرة الإمام الشافعي التي تقع جنوبًا داخل حدود منطقة الخليفة. ومقبرة الإمام الشافعي هي المركز الروحيّ "لمقبرة القرافة" التاريخية بالقاهرة، التي تمّ بناؤها جزئيًا، وهي مسكونة منذ القرن التاسع الميلادي. كما تعمل مبادرة "الأثار لينا" على ترميم ضريح الإمام الشافعيّ الذي يعود تاريخه للقرن الثالث عشر الميلادي، وهو أحد روائع العمارة الإسلامية في القاهرة. وتشمل أعمال الترميم الميلاح أعمال البناء، والجص، والرخام، وترميم الأخشاب، وصيانة الكسوة الخارجيّة المصنوعة من الرصاص، والديكور الداخلي متعدد الألوان للقبّة الخشبيّة، وهي أكبر نموذج باقٍ من نوعه في مصر وأقدمه 6.

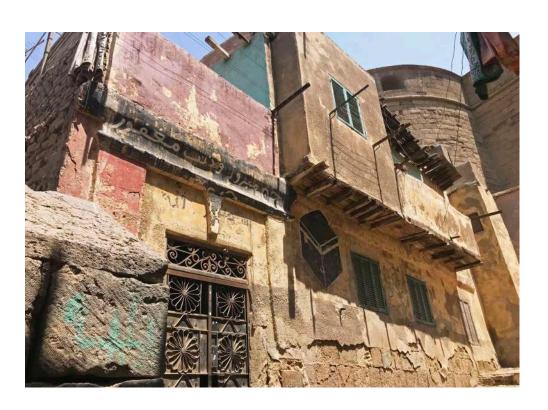
وسوف يستضيف مركز الزوّار أنشطة تعليمية أجميع الأعمار، ويقدّم معلوماتٍ عن الموقع ومحيطه، ويعرضُ مخْرجاتِ حفرياتِ المشروع التي كشفت عن بقايا ضريح من القرن الثاني عشر تحت القبّة الحالية. كما تعاونت مبادرة "الأثار لينا" أيضًا مع أحدِ مصمّمي الغرافيك، ومع راوي قصص، ومرشدٍ سياحيّ، لتصميم وتنفيذ مسيرةٍ لرواية القصص، وجولةٍ إرشادية، وجولةٍ ذاتيةِ التوجيه، باستخدام رموز الاستجابة السريعة المرتبطة بالمعلومات التاريخية 17.



◄ الشكل 17:
 قبة الإمام الشافعي

كما توسّعت مبادرة "الأثـار لينا" إلى "حيّ الحطّابة" الذي يقع شرق منطقة شارع الخليفة شمال قلعة القاهرة مباشرة. وقد درست المبادرة أيضـًا مشروع الإسكان العام الحديث في "حيّ زينهم" الذي يقع مباشرة غرب منطقة شارع الخليفة. ويصبّ هذا العمل البحثي ضمن مشروع مشاركة المواطن في مشروع القاهرة التاريخية.

تمت دراسة "حيّ الحطّابة" بوصفه مثالاً لأحد الأحياء التاريخية المتداعية، وكان قد تمّ إدراجه خطأً على أنه مستوطنة عشوائية، فتقرّر إخلاؤه و هدمه. وكان "حيّ زينهم" موضع اهتمام كمثال على تسوية حديثة داخل حدود القاهرة التاريخية التي تتعارض على ما يبدو مع سياقها ومع ذلك لديها القدرة على توفير مساحة عامة هي بأمسّ الحاجة إليها للاستخدام المجتمعي.



◄ الشكل 18:حي الحطابة

وكان البحث في "الحطّابة" مُلِحًا بشكلٍ خاص لأنه يهدف إلى وضع خطة لحفظ الحيّ وتطويره كمنطقة سكنية/حرفية ذات إمكاناتٍ كوجهة سياحية. وقد تمّ تقديم الاقتراح للحكومة المصرية كبديلٍ للهدْم، فتمّ منحه موافقةً مبدئيةً من قبل كل من وزارة الأثار والمنظمة الوطنية للتناغم الحضري. وتواصلُ مبادرة "الأثار لينا" الدفاع عن "الحطّابة" والضغط على الحكومة من أجل حفظها وتجديدها. كما نفّذت المبادرة مشروعيْن في الحيّ تمثّلا في إقامة حديقةٍ مجْتمعيّةٍ، ومشروع لحفظ مبنىً يعود للقرن الخامس عشر بهدف استخدامه كمركز تطويرٍ حرَفيّ¹⁸.



◄ الشكل 19:
حديقة الحطابة المجتمعية

تبادل المعرفة

بلغت مبادرة "الأثار لينا" العاشرة من عمرها في عام 2020. وقد طوّرت مجموعة متنوّعة من المنهجيّات، وجمعت مجموعة كبيرة من البيانات والمعلومات ذات الصلة بمجالات التراث والعمارة والعمران. وتم إنجاز الكثير من أعمالها بطريقة تعاونية مع شركاء من الحكومة والأوساط الأكاديمية والمؤسسات المهنية. ولديها برنامج تدريب، وتدريب شعبي، وهي تدير برنامجًا ثابتًا من ورشات العمل، يركّز الكثير منها على ابتكار حلول لمشاكل حقيقية. وتشارك المبادرة النتائج التي تصل إليها من خلال المحاضرات وجولات المشي في المدينة والمناقشات التفاعلية. وهي تتمتّع بحضور افتراضي قويّ عبر مواقعها الإلكترونية الثلاثة 10 وصفحاتها على مواقع التواصل الاجتماعي، حيث تضمّ الأخيرة أكثر من أربعين ألف متابع 20.

وتنتج مبادرة "الأثار لينا" أيضًا مجموعات أدوات وأدلة وكتيبات تجمع العمل المنجز وتحلّله وتقدّمه بأسوب المعرفة التطبيقية. وقد أنتجت مجموعاتِ التعليم التراثية وعملت على مشاركتها، وكذلك وضعت خطط الحفظ والإدارة، التي أنتجتها من عملها في منطقة الخليفة، في متناول الجميع. وهي تعمل حاليًا على انتاج مجموعة أدوات وكتيّبات للمياه الجوفيّة تركّز على التخفيف من أضرار الرطوبة المِلْحيّة، ورشْح المياه، واستخراج المياه الجوفيّة وإعادة استخدامها21.

كما تنتج "مدرسة الأثار لينا" التراثية للتصميم والتفكير كتيّبات وأدوات لمُدَرّسي التراث، وسيعمل "مشروع الإمام الشافعي للمحافظة على التراث" على إنتاج "دليل صيانة الموقع وإدارته". وتتمّ مشاركة هذه الموادّ من خلال موقع "الأثـار لينا" وأيضًا من خلال دورية "أوراق مجاورة" التي تمّ حتى الأن طباعةُ ثلاثة أعدادٍ منها.

كما تواصل مبادرة "الأثار لينا" العمل لإشراك سكّان حيّ الخليفة في عملها. والآن يُنظر إلى الأطفال (الذين أصبحوا اليوم مراهقين) والذين التحقوا ببرنامجها التعليمي لسنوات، على أنهم قادة المبادرة المستقبليين. وتهتم المبادرة أيضًا بإبراز النساء كقائدات فاعلات للتغيير، تاريخيًا وحاليًا.

في الحطّابة، وكجزء من الجهود المستمرّة لتعزيز حقّ المجتمع في بيئته المبنيّة وتراثه وتاريخه، نظّمت مبادرة االأثـار لينا" مشروعًا عنوانه "لحاف الحطّابة"، وهو مشروع لإعادة سرْدِ تاريخ الحطّابة كما رأينا من قبل نسائها ومن خلال خليط (خيام) معلّق من صنعهنّ 22. كما تمّ توثيق العملية في مقطع فيديو قصير يستخدم للدعوة لحفظ "الحطابة". كما أنها تتعاون مع عالم إثنوغرافي وراوي قصصٍ لجمع وإعادة سردِ قصصِ نساء منطقة الخليفة وروايتهنّ عن تاريخها.

إن اهتمام مبادرة "الأثار لينا" بفهم ونقل منطقة الخليفة من خلال عيون سكّانها لا يقتصر فقط على النساء. فهي تقوم حاليًا بتطوير مَسْردِ مصطلحاتِ شارع الخليفة الذي يعيد تعريف العناصر العامة للشارع من منظورٍ محدّدٍ لكيفية عملها في سياق شارع الخليفة، تستمّر المبادرة في رسم خريطة منطقة الخليفة من منظور هم وذلك باستخدام الفنّ ورواية القصص والأفلام كوسيط²³.



◄ الشكل 20:
 مشروع الحفاظ على
 ضريح الشرفاء بالحطابة



◄ الشكل 21: لحاف الحطّابة

الطريق إلى الأمام

تواصل مبادرة "الأثار لينا" ابتكار حلول تشاركية متكاملة تربط حفظ التراث بتنمية المجتمع. وتفتخر مبادرة "الأثار لينا" بقدرتها على الحفاظ على علاقة عمل مع الدولة مع الاحتفاظ باستقلاليتها وبناء علاقة قوية مع المجتمعات التي تعمل معها. كما أنها تفتخر بقدرتها على التطوّر - بل حتى على التحوّل - بطريقة عضوية تستجيب لإمكانيات مصر والمنطقة. لكن التمويل نادرٌ والدعم المؤسّسي ليس ثابتًا. وتعتمد مبادرة "الأثار لينا" بشكل كبير على الشبكة التي طوّرتها، وعلى دعم شركائها المهنيين والأكاديميين والمانحين المحليين والدوليين.

وهي تتعامل باستمرار مع القضايا التي تنشأ من الأدوار المتضاربة للتراث والتنمية، والحاجة المستمرّة لإعادة تحديد المواقف استجابة للسياسات المتغيّرة المتعلقة بالتراث، والاستجابة لفرص التمويل المتقلّبة. والأهم من ذلك هو أنها تهتمّ باستدامة جهودها والحاجة إلى إعادة توجيه نفسها نحو الاستراتيجيات التي تضمّنُ ألا تضيع جهودُها عندما لا تكون موجودةً حفاظًا على تأثيرها.

إضافات

- 1 تم تمويل الأثار لينا 1 من قبل المعهد الدنماركي للحوار المصري. وجرت أنشطتها بين حزيران/يونيو وكانون الأول/ديسمبر 2012.
- 2 نفذت في الفترة ما بين تشرين الثاني/نوفمبر 2012 وكانون الأول/ديسمبر 2015 بتمويل من مركز البحوث الأمريكي في القاهرة وبتمويل إضافي من صندوق بركات الاستثماني.
 - 3 تم تصميم الجداريات من قبل هاني محفوظ وأغنيس ميشالشيك ونفذها فريق من المتطوعين بقيادة ميشالشيك.
 - 4 تم تمویل ورشة عمل ورسم الخرائط SDYK1 من قبل المجلس البریطاني.
- يعمل تحت مظلة منظمة أرض الإنسان بتمويل من مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين. استمر هذا المشروع بين حزير ان/يونيو و كانون الأول/
 ديسمبر 2015.
 - 6 مجموعة الأدوات هذه متاحة على الموقع الشبكي لأثار لينا؛ /https://atharlina.com/fusha
 - 7 تم تنفيذ هذا المشروع في عام 2015 بتمويل من صندوق سفراء الولايات المتحدة للحفاظ على الثقافة.
 - 8 بتمويل من منحة بحثية شخصية مقدمة من معهد التعليم الدولي إلى أحد أعضاء فريق آثار لينا.
 - 9 بتمويل من محافظة القاهرة وشركة بيبسى.
- 10 تم تمويل هذا المشروع من قبل مركز الأبحاث الأمريكي في مصر والسفارة الأمريكية في القاهرة وصندوق بركات، وكان بالتعاون مع وزارة السياحة المصرية ومحافظة القاهرة وجامعات أوريغون وكورنيل وتي يو دلفت والقاهرة، بالإضافة إلى تكوين لتنمية المجتمعية المتكاملة.
 - 11 تتولى محافظة القاهرة تمويل وتنفيذ الجزء الأكبر من هذا المشروع. آثار لينا مسؤولة عن تخضير الموقع بتمويل من سفارة هولندا في القاهرة.
 - 12 بتمویل من مؤسسة فورد.
- 13 تم تشغيل مشروع التجديد الحضري للقاهرة التاريخية من قبل اليونسكو من عام 2010 إلى عام 2015 لأدوات إدارة التنمية للقاهرة التاريخية ككل. ويمكن الاطلاع على مزيد من المعلومات في الموقع التالي: /http://www.urhcproject.org
 - 14 بتمویل من مؤسسة در وسوس.
- 15 يتم تمويل هذا الموقع من قبل مؤسسة دروسوس ومؤسسة فورد وصندوق السفراء للحفاظ على الثقافة بتمويل إضافي من صندوق http://www.khalifa.atharlina.com و ALIPH. لمزيد من المعلومات، انظر إلى Prince Claus CER
- 16 بتمويل من صندوق سفراء الولايات المتحدة للحفاظ على الثقافة و بتمويل إضافي من صندوق بركات الاستئماني وبرنامج الاستجابة للطوارئ الثقافية التابع لصندوق الأمير كلوز و ALIPH وسفارة هولندا في القاهرة.
 - 17 على التوالي، أدهم بكري، شيرين الأنصاري وميساء مصطفى.
- 81 18. تم تمويل الحديقة المجتمعية من قبل تشيبسي مصر وتم تنفيذها في عام 2018 وتم تمويل مشروع الشرفاء للحفاظ على البيئة من قبل مركز الأبحاث الأمريكي في مصر وتم تنفيذه بين عامي 2019 و 2021.

- www.atharlina.com; www.megawra.com; www.khalifa.atharlina.com ¹⁹
- Facebook//Megawra Built Environment Collective; Facebook//Athar Lina انظـر علـى ســبيل المثــال 20 .Facebook//Megawra Focus Group. Facebook//Al-Hattaba Development Project
 - 21 بتمويل من برنامج الاستجابة للطوارئ الثقافية التابع لصندوق الأمير كلوز.
 - .Landscapes of Hope بتمویل من 22
 - 23 في إطار برنامج خليفة التبادلي في مجاورة، بتمويل من المعهد الهولندي.



صوت الدبلوماسية الثقافية في زمن الأزمات السياسية

أ. د. جيهان زکي

تعدّ الدبلوماسية الثقافية من أهمّ الاستراتيجيات التي تُستخدَم من أجل إرساءِ دعائم متجدّدة للسياسة الخارجية للدول، وتزداد الحاجة إليها في حالة الأزمات والصعوبات شديدة الوطأة التي قد تنشأ بين الدول.

وإذا كانت الدبلوماسية "التقليدية" تعتمد على عمل السفراء والقناصل وطواقم الدبلوماسيين الذين يعاونوهم كما تعتمد على نشاطهم، وكذلك على دور المبعوثين الخاصين، وحاملي الرسائل الدبلوماسية على هامش المؤتمرات واللقاءات السياسية الدولية، فإن الدبلوماسية الثقافية تتمثّل في أنشطة "الفاعلين الثقافيين" ذوي المهارات والمواهب والقدرات الخاصة. وهي تعتمد أيضاً على ممارساتهم التي تبعث شعورًا بالاستحسان لدى الأخر، وتجلب لهم ولدولهم إجلال شعوب العالم وتقديرها.

لهذا، فإن الدبلوماسية الثقافية لم تعد ترفئا في ساحة العلاقات الدولية اليوم، بل أصبحت أداةً محوريّةً للتعريف بمقومات البلاد ورؤيتها للعالم وعمقها الحضاريّ وحيويّة شعبها من خلال إنتاجات المبدعين والمثقّفين ورجال الفكر وروّاد الفنّ وأعضاء البعثات الفنية. وثمّة ما يمكن ملاحظته حول هذا النمط من الدبلوماسية وهو أن العمل الثقافي والفنّي يملك وحدّه امتياز التواصل بسلاسةٍ مع النُّخب، لا سيّما القاعدة العريضة من المجتمعات، قافزًا بذلك على المحدود السياسية. وقد دفع ذلك دولًا كثيرة لأن تولي أهميةً كبيرة للاستثمار في التمثيل الثقافي الدولي ولدعمه بقوة بوصفه أداةً نافذة المدى و عابرة للحدود في مواجهة التحديات الدوليّة.

من هنا تأتي أهمية المنصات الفنية والثقافية خارج الحدود. ولعلّ إيطاليا قدّمت نموذجاً يحتذى به، وذلك بإقامة ما يعرف ب "أكاديميات الفنون الجميلة" على خلفية البعثات الفنية التي كانت تردّدت لعقود طويلة على "وادي جولي" بروما. فجاء القرار السياسي الإيطالي الواعي والصائب بدعوة الدول التي تتردّدُ بصفةٍ دولية على هذا الوادي إلى تحويل ذلك التواجد الفنّي البوهيمي إلى كيانات ذات إطار مؤسّسيّ تعترف به الحكومات، بل وتتّبع التمثيل الدبلوماسي للدولة. فإذ بأوروبا تشهد مولد فكرةٍ أكاديميات الفنون الجميلة عن طريق هذه الطفرة المؤسسيّة المبتكرة.

ومع العقود الأولى للقرن للعشرين تزايد عدد الأكاديميات الفنية في روما، العاصمة الإيطالية. وفي عام 1926 طالبت البعثة الفنية المصرية المتواجدة في روما، وبالتحديد كل من الفنان راغب عيّاد وزميله يوسف كامل، عبر التقدّم بطلب رسمي للمفوّضية المصرية في إيطاليا، داعين الحكومة إلى إنشاء "أكاديمية للفنون المصرية" أسوة بأكاديميّات الدول الكبرى، ومذكّرين في هذا الإطار، بريادة مصر الثقافية وبحضارتها التي تشعّ منذ آلاف السنين بالفنون والإبداعات.

وحيث أن البعد الثقافي كان دائمًا عاملاً هامًا في صياغة العلاقات الثنائية بين مصر وإيطاليا، وفي التقريب بين البلدين نظرًا لأن كِلا المجتمعين لديهما تاريخ عريق ومنتَج ثقافي وحضاري مميّز يدعو إلى الاعتزاز به والترويج المستمرّ له. وحيث أن هذا البعد التاريخي يجعل الإيطاليين يولون الحضارة المصريّة اهتمامًا كبيرًا تقديرًا منهم لكل ما خلّفته من تراثٍ ثقافيّ، فقد وافق البرلمان المصري في عام 1928 على ميزانية محدّدة تخصّص لإنشاء "أكاديميةٍ مصريّة للفنون" في العاصمة الإيطالية روما.



✓ الشكل 1:
 أعضاء بعثة الفنون
 الجميلة - غلاف
 مجلة المصور

وعلى مدى قرن من الزمن (1926 – 2021) أخذ هذا الصرح الثقافيّ يعلو بقامته لترتفع وتعانق سماء "حدائق بور غيزيه" مؤكّدة دور ها كصرح عربيّ وأفريقيّ هو الأوحد وسط الأكاديميّات العالمية السبع عشر اللاتي تتميّز بها الدولة الإيطالية وتتباهى بكونها تحتضنها دون الدول الكبرى في العالم.

ومن هذا المنطلق، عملت "الأكاديمية المصرية للفنون" بروما على دعم التعاون مع الجهات العلمية والمؤسسات البحثية والجمعيات الثقافية الأوروبية وتعزيزه بغية تنشيط دور الدبلوماسية الثقافية وتعظيمه، واستغلال القيمة المضافة للثقافة المصرية للترويج للمنتج الثقافي المصري بصورة متميّزة وبما يصب في نهاية الأمر لصالح استثمار عناصر "القوّة الناعمة" أو كما تسمّى أيضًا "القوّة الذكية" على النحو الذي يسهم في تحقيق مصالح الدولة المصريّة، ويجعل الأكاديمية محطّة محوريّة في العلاقات الثنائية.

وقد حرصت الأكاديمية المصرية على ترسيخ أعمدة الدبلوماسية الثقافية أثناء الأزمات الحرجة التي مرّت بها المنطقة على الصعيد الإقليمي. كما عملت على تنويع النشاط الثقافي والفنّي بهدف الترويج للفنون والثقافة المصرية والعربية على كافة المستويات، وكذلك مخاطبة الفئات المختلفة في المجتمعات الإيطالية والأوروبية. فقد تمكّنت، من خلال استراتيجية مُحْكمة امتدت عبر السنوات الأخيرة، من أن تؤثّر على الصورة المغايرة والمغلوطة التي تزجّ بها بعض الجهات المعادية للعرب وذلك من خلال إقامة عشرات المؤتمرات الدولية والندوات الفنية والثقافية والماتقيات العلمية والحلقات الدراسية حول تاريخ الفنّ المصري القديم والحديث والصالونات الموسيقية والفنّية ومعارض الفنون التشكيلية لكبار الفنانين المصريين والعالميين، وإقامة عروض سينمائية مصحوبة بالترجمات المختلفة.

ونظرًا لما مرّت به مصر والدول العربية من متغيّرات سياسية وأحداثٍ جسامٍ منذ عام 2011 وحتى الآن، فقد كان على الأكاديمية أن تتحمل مسؤوليتها القومية كخطِّ الدفاع الأول عن الهويّة المصرية والعربية في أوروبا، وأن يعلو من منبرها الصوت الواضح الصادق الذي يمحو الصورة المغلوطة ويوضح الحقيقة وينقي الشوائب العالقة بالفكر الغربي أمام المؤثرات الإعلامية الغربية. ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن عقيدتنا في إدارة الأكاديمية كانت "الثقافة يد تصافح وفكر يقبل الآخر"، وأكدنا أيضاً أننا نستفيد من النقد البنّاء. وكان نبراسنا هي كلمات آنى الحكيم التي ترصّع واجهة الأكاديمية وهي التي نضعها على الدوام نصنب أعيننا، لنذكره ونتأمّل مقولته الخالدة التي أطلقها في الألفية الثانية قبل الميلاد: "لا تفتخر بمعرفتك .. واستشر ذوي الفطرة والحكيم".

الدبلوماسية الثقافية ... ابتكار غربي أم واقع تاريخي

إن دراستي لعلوم المصريّات وتاريخ مصر القديمة جعلتني أعيدُ التفكير في مصطلح "الدبلوماسية الثقافية". هذا المصطلح الرنّان الذي بات المثقفون يتداولونه كثيراً في الأونة الأخيرة، كما يتداوله أيضًا الساسة الكبار في برامجهم الانتخابية، ساعين من خلال استخدامه إلى صبغ أحاديثهم بضوءٍ برّاقٍ يتلألا مثل الشعاع الصادر الذي يلوّح بالنجاة لمن تلاطمه الأمواج وتتعثّر به القنوات.

إن هذا المصطلح مكون من كلمتين تعتبران من "كلاسيكيات" الريبرتوار العالمي وهما الدبلوماسية والثقافة: أما "الدبلوماسية" فهي كلمة ذات أصل لاتيني، وتعني التمثيل السياسي للبلاد وتصريف شؤونها الخارجية لدى الدول الأجنبية، وقد تعنى وفقًا للمعجم: "اللباقة" أي "البراعة في التعامل مع الأخرين".

أما "الثقافة" فهي كلمة ذاتُ أصلٍ عربيّ وتعني الرقيّ الفكريّ والأدبيّ والاجتماعيّ للأفراد والجماعات. وليس في تعريفهما أية غرابةٍ، ولكن يبدو أن تضافر هما معًا تحت مظلّة واحدة يجعل الواحدة تثري الأخرى، وهما يضفيان معًا نوعًا من السّحر على أذنِ كلّ مستمع لهذه المصطلحات الفتّانة.



◄ الشكل 2: مسودة مذكرة مشروع انشاء أكاديميا في روما والتي رفعت إلى وزير مصر المفوض بروما



♦ الشكل 3: السيد أحمد ذو الفقار باشا – الدبلوماسي بالمفوضية المصرية بروما - يونيو 1924

يشهد التاريخ أن المنظومة الإدارية على ضفاف النيل في الألفية الثالثة قبل الميلاد كان لها السبق في إرساء قواعد تنظيمية وضوابط للحياة الاجتماعية ومعايير للنظم الاقتصادية والسياسية، وكان ذلك بلا شك على خلفية أحد أهم الظواهر الطبيعية في العالم القديم وهي فيضان نهر النيل. ولكن نادرًا ما يقودنا الفكر إلى تفاصيل بعينها داخل الدولاب الإداري المصري أنذاك. فمثلاً، وأنا أستمع إلى محاضرات معاصرة عن الدبلوماسية الثقافية، وأرى استناد الكثير من المحللين والباحثين إلى التجربة الفرنسية كخلفية لتوظيف الثقافة داخل العمل الدبلوماسي/السياسي، يطير بي الفكرُ وأستعيد بعض الومضاتِ ذات الطابع الدبلوماسي لما ابتكره أجدادي من ممارساتٍ ومما حققوه من إنجازات ومما تركوه من إرثٍ في مجال ما يعرف حديثًا بالدبلوماسية الثقافية".

دعونا نتذكّر معًا الشاب "حر- خوف" أول مبعوثٍ لملك البلاد الذي تمّ إيفاده إلى قبائل ما وراء النيل (بلاد الواق واق)، لاكتشاف واقعهم الجغرافي والتفاوض معهم وإرساء أواصر التعاون، فإذا به يعود محمّلاً بالهدايا والقرابين، وهو ما أرسى تقليدًا جديدًا عرفناه نحن في العوالم الحديثة باسم "الدبلوماسية". أما هذا التحرّك للشاب "حر-خوف"، الذي عاش في غضون الألفية الثالثة قبل الميلاد واستطاع تحقيق الكثير من الإنجازات السياسية والدبلوماسية في المنطقة الحدودية الجنوبية لمصر، فقد اعتبر بمثابة سبقٍ كبيرٍ لهذا الرجل الذي يضاهي اسمه كبار ملوك مصر رغم أن الشهرة لم تشمله بومضاتها.

كان ملك البلاد حينذاك، الفر عون "مرن-رع" قد أنعم على "حر-خوف" بألقاب عديدة تعكس أهمية وضعه في جهاز إدارة الدولة المصرية وحجم مهامه. ولعل من أهم هذه الألقاب: "محبوب الملك"، "الكاهن المريِّل"، "قائد تشريفة الملك"، "حامل الختَّم الملكيّ" و "أمير الحدود الجنوبية".

صوت الدبلوماسية الثقافية في زمن الأزمات السياسية

وقد قص "حر-خوف" تاريخ مهامه الاستكشافية في أرجاء منطقة ما وراء الشلال الأول – والتي طالما ارتبطت في وجدان المصريين بالمجهول – على واجهة مقبرته المنحوتة في قلب الجبل غرب أسوان والمعروفة بجبّانة "قبّة الهواء"، حيث ترتص مقابر حكّام جزيرة إلفنتين وكأنها صفحات من السجل السياسي والدبلوماسي لهذه المنطقة الهامة على مرّ التاريخ المصري القديم.

ومن نقوشه نقرأ:

"أرسلني جلالة الملك "مر- نرع" ... وقد سرتُ على طريق الفنتين وذهبت نحو الجنوب وذلك في مدّة ثمانية أشهر، وقد عدتُ بعد أن حمَلتُ معي منتجات هذه البلاد الأجنبية بكمياتٍ وافرةٍ لم نعرف نظائرها من قبلُ ... وقد حلَلْتُ على بيوت قبائل "سنشو" و "ارثت" بعد أن زرتُ مجاهل هذه البلاد الغريبة. والواقع أنه لم يتسنَّ قطُّ لأيَ من قبلُ أن يفعل ذلك".

أفلا يعبر ذلك عن قلب الدبلوماسية وعقلها ؟

وكان مبعوث الملك "حر-خوف" قد اعتنى بتنظيم رحلته وتحرّى تفاصيل مهمّته كحالِ دبلوماسيّي اليوم. فراح يختار رجاله ويمدّهم بما سيلزمهم من الزّاد والعتاد أثناء هذه الرحلة الطويلة التي استهدفت حينذاك قهْرَ أسطورة المجهول واكتشاف ما وراء صخور منطقة الشلال الأول. وهنا أسمح لنفسي أن أسلّط الضوء على الاستعارة المكنيّة التي تؤكّد أن المهمة الدبلوماسية لطالما كانت صعبة، تشوبها المخاطر والتحدّيات منذ قديم الأزل. وقد كانت أيام حر-خوف، على هيئة دوّامات متداخلة ومتشابكة بسبب وعورة التيّارات المائية، وخروج مياه الفيضان من قلب هذه المنطقة الصخرية، وكذلك بسبب انعدام القدرة على الإبحار حول بعض التكتلات الصخريّة. أما دبلوماسيّو اليوم فيتعرّضون هم أيضًا لتحدّياتٍ كبيرةٍ وتيّارات فكريّة مغايرة وأزمات سياسية ذات الدوّامات العاتية، ولكن، ورغم صعوبة التيّارات المتضاربة والأمواج العالية كان التسلّح بالصبر والإصرار على استكمال المهمّة والتصدّي للأخطار والمهالك وما يزال سمة القائم بتمثيل الوطن خارج الحدود.

وعود على قصة حر-خوف، وفي إشراقة شمس يوم جديد، إذا بنهر النيل يفتح ذراعيه له بالترحاب والتهليل، فيتسع أمامه وتهدأ مياهه وتختفي أمواجه العاتية، ويظهر على جانبيه الأطفال والنساء بملامحهم المختلفة وهم يرفعون أيديهم ويهللون ويصيحون فرحًا ودهشة.

وفي إحدى محطات عودة الأمير "حر-خوف" إلى جزيرة الفنتين، غالبة المرض من فرطِ التعبِ والإعياء، ولم تمهله الأقدار فرصة رؤية أهله وذويه، ففارق الحياة تاركا ذكرى مهمته الدبلوماسية محفورة في القلوب قبل الصخور. وما يزال حتى الآن اسم بلاد "الواق واق" باقياً في العامية المصرية ومرتبطا بالمجهول. فالموظف الصغير الذي يُنقلُ إداريًا إلى مدينة أسوان، على سبيل المثال، أو إلى منظقة بعيدة نائيةٍ يعبر عن نقله إلى هذا المكان البعيد بلفظ "الواق-الواق"، وهو لا يدري أن ملحمة أحد أعظم أجداده، الأمير "حر-خوف" قائد التشريفة الملكية، تكمن بين حروف هذا التعبير.

وعلى الصعيد التوثيقي، يأتي تحليل علماء الأثار لقصة "حر-خوف" مبتورًا بعض الشيء، حيث يقتصرُ على التفاصيل الجغرافية لرحلته إلى الجنوب وعبوره صخور الشلال الأول، وسط وعورة مياه الفيضان وصعوبة الإبحار عكس التيار. وقد أخفق هذا التحليل في استنباط واستقراء روح الحماسة والإقدام والمبادرة التي تميّز بها هذا الرجل، رجل الدولة، العليم بالتحديات السياسية القائمة على الحدود الجنوبية.

تمتّع "حر-خوف" بحاسة دبلوماسية رفيعة في تعاملاته في الداخل والخارج، حيث استطاع طرح رؤية مبتكرة على مناطق جديدة. على الديوان الملكي حينذاك لإحكام القبضة على حدود البلاد الجنوبية وفرض سيادة الدولة على مناطق جديدة. وقاد تلك الرحلة بنجاح ليصبح أول من اخترق قلب القارّة الإفريقية وتعرّف على شعوبها ومدّ لها يد التعاون وربطً أواصر الصداقة والعلاقة.

وفي النهاية، يفرض السؤال نفسه علينا: هل كانت مبادرة "حر-خوف" مجرّد رحلة استكشافية أم أن التاريخ سيسجلها كأوّل بعثة دبلوماسية إلى قلب القارّة السوداء؟

الأعراف الدبلوماسية ... بين الأصالة والتفرّد

نقافة البروتوكول ... فنون المراسم ... إبداع الاحتفالات الملكية والمواكب الرئاسية ... جُملٌ وكلماتٌ ذات نكهة خاصة وومض برّاق، تقفز بخيالنا بعيدًا في فضائاتٍ رحبة، زاخرةٍ بمزيجٍ من الحسّ الجماليّ والانضباط العسكريّ، فتهبط بنا تارةً في فناء قصر باكنغهام بالعاصمة لندن، وطورًا أمام قصر الكرملين في مدينة موسكو حيث عبق تشريف القيصر، وأحيانًا في وسط ساحة الكونكورد في باريس التي طالما جالت فيها مواكب ماري أنطوانيت الأسطورية.

و لا يتبادر إلى أذهاننا أن ركائز ما نعرفه الآن بعلم البروتوكول، المعمول بقواعده في الدوائر الدبلوماسية العالمية، وكذلك أسس المدارس المراسمية المختلفة، إنما استقت رحيقها الأول من نبض الحضارة المصرية القديمة.

إنه لأمر مؤرق أن يكون شبابنا المعاصر، خصوصاً أولئك الذين تخرّجوا من المدارس والجامعات الأجنبية والدولية التي طفت على سطح النظام التعليمي المصري في نهاية عقد التسعينيات من القرن العشرين، متيّم بالقراءات والتفسيرات الغربيّة التي يتناول بعضها حضارات العالم القديم بشكل أحادي الفكر، وتناقشه من منطلق يخدم أهدافها الاستر اتيجية، بل وأحيانًا ما توظّف بعض ثناياه لتشكيل فكرة بعيْنها وتعزيزها والترويج لها على أسسٍ "مفبْركةٍ" لإقناع الشعوب المعاصرة بها، ومحاولة غزل خيوط ما سيصبح مستقبلاً هو "التاريخ".

وبموضوعية شديدة، علينا أن نعترف بأن هؤلاء الشباب الذين نوجه إليهم اللوم والاتهام بالسطحية والذين كانوا أطفال الأمس، لم يتم تعريفهم بأجدادهم وأسلافهم كما ينبغي، وعلينا أن نعترف أيضًا أنه قد تمّ تشكيل وجدان الطفل المصري دون ركيزة هامة – في إطار التعليم المعاصر - تعدّ عماد وجوده في هذه الحياة وهي: هويّة آبائه وأجداده، أي عمق الشخصية المصرية!

إحساس مفزع أن يسود هذا الفتور بين الطفل المصري وشخصيات مادّة "التاريخ" إلى حدّ يصل أحيانًا للاستخفاف ببعض أسماء أجداده العظام التي تبدو غير مألوفة على مسمعه، أو أن يعمل على التهكّم على إنجاز ضخم حقّقه هؤلاء.

فمن الذي قطع الحبل السريّ بين الابن وأجداده؟ ولماذا وقعت أجيال وأجيال، شيّدت وعمّرت وأبدعت وقادت العالم القديم للعلي، في هذه البئر السحيقة من النسيان؟

وتأسيسًا على مقولة إبن "عطاء الله السكندري"، "منْ ذاقَ عرف". فنحن نقدّم في السطور التالية بعض الحقائق التاريخية عن الأعراف الدبلوماسية في العصر الفرعوني التي لم نجدها، للأسف، في المراجع الأجنبية التي تُرجِعُ كلمة "الدبلوماسية" إلى اللغة اللاتينية، وتعود بأوّل تعامِل ذي نمط دبلوماسي إلى العصر الروماني، أي بعد حوالي ألفي عام من الفكر الراقي والمتصل بالآخر الذي كان يشعّ بنوره على العالم من أرض وادي النيل السمراء.

الاصطفاف والطابور المراسمي ... واقع فرعوني وإبداع فنّـي

إن الحرس العسكريّ لقصر باكنغهام، هو حرس عسكري أسطوري في أجوائنا المعاصرة، بحلَّتِه الحمراء وسروالِه الأسود وقبّعتِه الإسطوانية المصنوعة من الفراء الطبيعي. فقد عُرف بالانضباط لدرجة أنه أصبح هو نفسه رمزًا للتشريفة البروتوكولية، يضاهيه في حَبْكِ آليّة المراسم. كذلك هو العسكري الفرنسي ذو الرداء الأزرق والقبعة المزوّدة بالريش الأحمر والمعروف بخطواته الصارمة التي تضرب الأرض واحدة تلو الأخرى وكأنها دقّات عقارب الساعة التي تنظّم الكون. وإذا اتجهنا ناحية حضارات شرق آسيا، نجدُ مدرسة بروتوكولية مختلفة فريدة من نوعها، تعتمد على عامل الإبهار والتحدّي البصريّ. فبالإضافة إلى الاصطفاف والالتزام بالخطوة الموحّدة، هناك أيضًا توظيفٌ دقيق لاستخدام الأزياء ذات التعبيرات الفنّية المختلفة التي تتغيّر بتغيّر المناسبات.

تغمرنا جميعًا أحاسيس الانبهار والإعجاب أمام مشاهدة مراسم استقبالٍ جمهوريٍ في كوريا الجنوبية أو اليابان. وتتعالى صيْحات التعجّبِ وتعبيرات الشغف والدهشة عند المتابعة التلفزيونية لحرس قصر باكنغهام المتراصّيين حول عربة الملكة "إليزابيث"، ملكة بريطانيا، أو تلك الصفوف الممتدة على طول طريق "الشانزيليزيه"

صوت الدبلوماسية الثقافية في زمن الأزمات السياسية

الشهير في احتفالات العيد القوميّ لفرنسا في الرابع عشر من شهر تموز/ يوليو من كل عام. ولكن هناك أحاسيس أخرى مختلفة تغلبني، فتصيبني بالغصّة، وهذا لأني بمعرفتي للتاريخ المصري، على يقين بأن خطوات أجدادنا التي كانت – منذ أكثر من أربعة آلاف عام – هي الأقدم وهي الأساس لما يعرف اليوم ب "فنّ المراسم"، قد وقعت ذكرياتها فريسة لأيام غادرة، محتت ذكراها بل وتركت الفضاء واسعًا شاسعًا أمام من يدوّنوا تاريخًا "مصطنعًا"، محوا من صفحاته حقائق دامغة وصاغوا أخرى بهوى معيّن.

إن هذا الاصطفاف الذي يأخذ الطابع المراسميّ، كان يقام في حياة المصري القديم بصفة يوميّة، حيث كان المصريون يستقبلون به يومهم الجديد وشمسه المشرقة التي تهب لهم الحياة. فها هو النفير يدوّي في ساحة معبد الكرنك في قلب مدينة طيبة ليعلن عن خروج الكهنة في مشهد منظّم، الواحد تلو الأخر في صفوف مرسومة وخطوات محسوبة، فالكل يتبع مسارًا واحدًا محدّدًا وفق تعليمات كبير هم لتحيّة شمس النهار التي ترتفع رويدًا رويدًا لتتوسّط السماء.

ومن داخل أرجاء قصر فرعون بمدينة "هليوبوليس" تدوّي دقات الطبول المختلفة لخروج فرعون البلاد من قصره في زيارة رسمية تجاه مصر العليا. فها هم الأفراد المسؤولون عن المراسم الملكيّة ينتشرون أمام البوابة الشاهقة، كل في مكانه، منفّذين تعليمات قائدهم الشاب "حيرى" الذي كان من قبل قد اطمأن بنفسه على هيئاتهم مع مصمّمة أزياء القصر الملكي النبيلة "نبتي- كا". أما عن تسريحة الشعر، فقد كان الحلاق "إيدو"، حلاق الجنود، يتابعهم بصفة دورية للتأكّد من صحّة فروة الرأس وسلامتها وإحكام قصة الشعر للجميع.

ونتخيّل أن قائد التشريفات في عصر رمسيس الثاني كان يحمل عباً كبيراً، حيث كان الملك نشيطًا وكثير التنقّل بين قصره في هليوبوليس ومقرّاته الأخرى في منف وطيبة النوبة. وفي فترة زواجه من ابنة ملك الأشوريين، واستقباله لوفود بلادهم، كان يتعمّد تدعيم أفراد التشريفة الملكية بعوامل إبهار إضافية، تفوح بعظمة بلاده ومجد أجداده. فأخذ يُثري مواكبه بهدايا ثمينة ومنتجات ذات طابع فريد مطعّمة بالأحجار الكريمة من مختلف أنحاء الامبراطورية المصرية حينذاك. أما الهدايا الملكيّة، فحدّث ولا حرج. فقد كانت مصنوعة من رقائق الذهب الخالص المستخرج من سبائك منطقة "وادي علاقي"، أشهر مناجم هذا المعدن النفيس.

أما رجال المراسم الملكية، فكانوا يرتدون أزياءً مطرّزةً بخيوط صوفية متنوّعة الألوان ومحلاة بأنماط مزخرفة. وكان بعضهم يرتدي كساءً من الكتّان ذي أكمام واسعة وطويلة تقفل من الأمام بمشابك ذهبية تشبه ما يسمى اليوم "البروش"، بينما يرتدي من يقفون في الصفوف الأولى وشائح كبيرة من الصوف الملون ودلايات بديعة تعلّق في أعناقهم. وبجانب هؤلاء الرجال، كانت النساء يتزيّن بثياب أنيقةٍ ذات ثنايا رفيعة وحليّ من الخرز الملوّن.

وعلى صعيد آخر، لما كان فرعون البلاد، على سبيل المثال في عصر توت عنخ آمون، يقوم بزيارة إلى جزيرة الفنتين، تلك الجزيرة التي اعتبرها المؤرخون بوابة مصر الجنوبية، كانت المواكب التي تستقبله من أهل الجنوب تضاهي المواكب الملكية التي تستقبل الوفود الأجنبية روعة وتنظيمًا. ولعل موكب الأمير "حوي" حاكم بلاد كوش في قلب بلاد النوبة إلى "توت عنخ آمون"، أفضل كناية عن معرفة المصربين بأصول المواكب والمراسم الاستقبالية وقواعدها، وتفردهم بتنظيمها بوعي وحنكة ينبعان من إدراكهم لقيمتها في التواصل مع الأخر وتقديم صورة تليق بالوطن.

فكان حاكم بلاد "كوش" يتحلّى بالقلائد الذهبية حول رقبته، ومن خلفه يتبعه رجاله وقد صفّفوا شعرهم على هيئة تشبه القلنسوة يشدّها تاج من ريش النّعام، وارتدوا جلد الفهد، وزيّنوا آذانهم بحلقات كبيرة الحجم، بينما كانت تلمع في معاصمهم أساور ذهبية ضخمة.

أما الأمراء، فيظهرون في رشاقة ملْتقين في ألبسة شفافة ذات ثنايا دقيقة، وينتعلون الأحذية ذات السيور الجلدية، وبجانبهم يقف أولادهم الصغار الذين رُسمت على وجوههم الفرحة والدهشة وتدلّت ضفائرهم (المعروفة بجدلة الأمراء) تتأرجح في كل خطوة على خدودهم اليُمنى وهم يحاولون إزاحتها كي لا تعكّر أبصارهم في هذا الموكب المراسميّ المهيب.

هذه التفاصيل المراسمية الدقيقة بدت واضحة على نقوش مقابر طيبة التي رسمها الفنانون المصريون على الجدران هنا وهناك بعدما أطالوا النظر في هذه المواكب بانتباه شديد. فقد خلدوا هذه اللحظات ونقلوها بإخلاص شديد، لدرجة أن من يقف أمامها، حتى يومنا هذا يشعر وكأنه بالفعل في رحاب الموكب، وأنه جزء لا يتجزأ من جمع المتفرّجين. كما ينتابه شعور بالبهجة والفرحة والفخر بهذا الأداء الفاخر، رفيع المستوى.

لم يكن الفنانون يتخيّلون ولو للحظة أنه في يوم ما، في الألفية الثانية بعد الميلاد، ستصبح جدارياتهم بمثابة دروع و واقيةٍ وعتادٍ صلْب، لا يمكن المساس به والتشكيك في صحته، وأنه قرينة راسخة بأن أجدادنا هم أول من برعواً في فنون المراسم الاستقبالية والتشريفات الملكية، وكانوا هم السبّاقون في إرساء ركائز القواعد البروتوكولية.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أول زواج "دبلوماسي" قرّب بين شعبين، وهو ذلك الزواج الذي جمع بين فرعون مصر رمسيس الثاني وابنة ملك الحيثّبين، والذي تمّ عام 1275 ق.م..

وها قد مرّت الأيام والسنين، وانتهجت الدبلوماسية الحديثة أعراف المجتمعات القديمة في مراسم الاستقبال والتوديع، وكذلك في تبادل الهدايا والمنتجات المحلية، والأعراف ذات النمط الدبلوماسي مثل زواج أمراء من بلدان أخرى مختلفة لتعميق أواصر التعاون وتعضيد العلاقات بينهما كإبرام معاهدات سلام مع الدول المعادية، وكذلك في التعاملات والأنشطة التجارية والثقافية بين الشعوب، وفي كيفية التواصل مع الأخر ... وهو مرجعية ما نعرفه اليوم باسم "الدبلوماسية".

المراجع

- M. Cummings, *Cultural diplomacy and the United States government: a survey.*Washington, DC: Center for Arts and Culture (2003).
- J. Nye, Soft Power: the means to success in world politics. New York: Public Affairs, (2004). ISBN 978-1-58648-306-7
- M. Kurucz, "Kultúrna dimenzia diplomacie" in Zahraničná politika a diplomacia Slovenskej republiky v kontexte európskej integrácie. Zborník z vedeckej konferencie. Bratislava: Ekonóm, (2007) pp. 62-71.
- G. Paschalidis, Exporting national culture: histories of cultural institutes abroad. *International journal of cultural policy*, 15/3, (2009), pp. 275–289.
- M. Aronczyk, Branding the nation. Oxford: Oxford University Press (2013)
- E. Pajtinka, "Cultural Diplomacy in Theory and Practice of Contemporary International Relations" in Politické vedy 17 (2014) pp. 95-108. http://www.politickevedy.fpvmv.umb.sk/userfiles/file/4_2014/PAJTINKA2.pdf.
- G. Zaki, La Diplomatie Culturelle, *Dar el Maaref-Le* Caire 2022. (en arabe) ISBN 978-977-02-92-98-3
- G. Zaki, Cultural diplomacy: Between politics and entertainment https://english.ahram.org.eg/NewsContentP/50/484398/AlAhram-Weekly/Cultural-g;diplomacy-Between-politics-and-entertainm.aspx
- G. Zaki, Cultural diplomacy: The expression of national identity https://english.ahram.org.eg/NewsContentP/50/482568/AlAhram-Weekly/Cultural-diplomacy-The-expression-of-national-iden.aspx
- G. Zaki, Cultural diplomacy: A must for state branding https://english.ahram.org.eg/NewsContentP/50/482216/AlAhram-Weekly/Cultural-diplomacy-A-must-for-state-branding.aspx

الدبلوماسية الثقافية

د. أوليفر مارتن رئيس مجلس منظمة إيكروم

ما هو مفهوم "الدبلوماسية الثقافية" وكيف نفهمها؟ قال أحد السفراء ذات مرة إن الدبلوماسية تدور حول المصالح. ولكي تحصل على أقصى ما تريد، عليك أن تعرف شريكك واهتماماته الرئيسية وخطوطه الحمراء وخطوطه المحظورة. إلّا أنّ الدبلوماسية الثقافية هي مجال متعدّد الأوجه - وهي تتجاوز المصالح الوطنية الخاصة وتتخطى الحصول على أقصى ما يريد المرء.

في هذه الورقة ستتم مناقشة جانبين من الدبلوماسية الثقافية: الجانب الأول، هو تبنّي مبادرات ثقافية لتعزيز التفاهم المتبادل، أما الجانب الثاني فهو العمل المعياري، والذي نلعب فيه نحن المتخصصون في مجال التراث، دوراً رئيسيًا. وبطبيعة الحال، يظل التعرّف بعضنا على البعض الآخر أحد أبرز الجوانب الرئيسية للدبلوماسية الثقافية.

وفقاً للمعنى الأول، غالبًا ما يُقال إن الدبلوماسية الثقافية هي "القوة الناعمة". والمعنى لا يكُمن فحسب في مجال الثقافة، أي التراث الثقافي، ولكنه يكُمن أيضًا في الفنون، والأفلام، والتقاليد الحيّة، والطعام، وفي سهولة الوصول إلى البلدان الأخرى و هذا مؤات ويتسم بالودّية إلى حدٍ ما، فمن خلال المرور عبر الثقافة، يمكن تكوين أساس للتفاهم المتبادل عبر علاقات جيّدة تُبنى مع الأخرين. وهذا صحيح بالتأكيد. فالتعرّف على الأخر، "الغريب"، بطريقة مباشرة وحقيقية من خلال مشاركته ثقافته، يخلق تواصلاً ملهماً وغير رسميّ، ويحسن الفهم ويسهم في التغلّب في نهاية الأمر على التحيّز الموجود. أما الهدف من الدبلوماسية الثقافية فهو تسهيل الحوار، وفي بعض الأحيان يهيئ لنا أن نصل إلى إقامة الصداقة أو تعزيز الروابط. إنه نوع من فتّاحات الأبواب. ونحن نعلم جميعًا أنه بمجرد حصولنا على تجربة إيجابية مع ثقافة أجنبية، سيكون لدينا مقاربة أخرى لهذه الثقافة وللأشخاص القادمين من هناك.

مثلها مثل العديد من البلدان الأخرى، تعمل سويسرا على تعزيز هذا النوع من التبادل. يوجد في العالم عدد من المعاهد والمراكز الثقافية السويسرية المتخصصة في هذا المجال. فالسفارات السويسرية تنظم المعارض والمؤتمرات ويحصل الفنانون على مُنَح للعمل في بلدان أخرى. ولديهم أيضًا سلسلة من المدارس السويسرية في معظم مناطق العالم. وأغلبية طلاب هذه المدارس هم من الأجانب، مما يساعد سويسرا على زيادة ظهورها، ويتيح لها مجال مساعدة الطلاب على تحقيق أهدافهم التي تستمر معهم مدى الحياة. وهذا بالتالي، يعد بالفعل هدفًا ويبرز نوايا حسنة طويلة الأمد تجاه الطريقة السويسرية في العمل.

إن هذه الجهود للدبلوماسية الثقافية هي الأكثر أهمية. وينبغي أن يكون الوصول إلى الآخر مباشرًا وصحيحًا وبالتالي أصيلًا، وليس نتيجة حملة علاقات عامة أو مجرّد دعاية فظّة وهو ما يعدّ أسوأ من ذلك.

إلا أنه لا ينبغي لنا أن نرى "الدبلوماسية الثقافية" بطريقة تقتصر على النظر للثقافة على أنها ليست سوى ثقافة ناعمة وغير رسمية. ولا ينبغي أيضًا اختزالها إلى وسيلة جيّدة لتسهيل تحقيق الأهداف الجيوسياسية أو الاقتصادية الصعبة. فاعتبار "الدبلوماسية الثقافية" على أنها فقط "قرّة ناعمة" قد يسيء تقدير دور الثقافة وأهميتها. بمعنى آخر: الثقافة مادة صعبة أيضًا. ففي عصرنا هذا، أصبحت الأهمية السياسية المتزايدة للثقافة واضحة بشكل خاص، في عالم يبدو أنه يعيش فترة أزمة عصبية.

الدبلوماسية الثقافية

ونواجه اليوم تحديات غير مسبوقة، فهناك بالطبع الجائحة الفعلية كوفيد-19. وهناك أيضًا نقص هائل في الحماية البيئية مما يؤدي إلى تغيّر المناخ، وهناك فقدان كبير المتنوّع البيولوجي. كما أن هناك تفاوت اجتماعيّ، وتخاطر العقولمة غير المنضبطة بترك الكثير من الناس وراءها. وقد ظهرت قوى مؤسسية جديدة هائلة يتعيّن علينا أن نتعامل معها. فنحن نساعد في سلسلة من الصراعات المفتوحة المستمرة، مما يؤدي إلى معاناة إنسانية وكوارث بشرية لا تصدّق. كما يمكننا أن نلاحظ ارتفاعًا مقلقًا جدًا في الشعبوية في أجزاء كثيرة من العالم. فتزايد الانطباعات الدينية والعقائدية ذات الألوان المختلفة تسبب للناس التعب والمعاناة.

وفي عالم كهذا، لم تعد تعتبر الثقافة وكأنها إجراءً مرافقٌ فحسب، فالثقافة لها تأثير اقتصادي هائل. وفي عديد البلدان بات القطاع الثقافي يسهم بشكل أساسيّ في الاقتصاد الوطني، وباتت الساحة الثقافية ركيزةً للعديد من الاقتصادات الوطنية. ويوضح لنا الوباء الذي يضرب العالم حاليًّا ذلك بشكل كبير ويؤكّده.

بيد أن الثقافة مادة صعبة ليس فقط لأنها تجني المال. بل لأنها أيضًا مورد أساسي غير نقدي للمجتمع. فتحقيق الذات الثقافية الفردية يسهم في رفاه الناس. وإمكانية تجربة ثقافاتنا الفردية وعيشها- وهنا من المهم استخدام الجمْع- هي بالتالي عامل مهم للتماسك الاجتماعي وللمجتمع الشامل.

وكل الأفراد، سواء أكانوا رجالاً أو نساءً أو أطفالاً، وبصرف النظر عن أصولهم، لهم الحقّ في الوصول إلى الثقافة والمشاركة فيها والتمتّع بها، مع احترام التنوّع وحمايته. وهذا لا ينفصل عن تحقيق حقوق الإنسان والحريات الأساسية. وأنا أرى أن الجانب الثاني من الدبلوماسية الثقافية النشطة يتمثل على وجه التحديد في الدفاع عن هذا الدور العالمي للثقافة بما يتجاوز حدود دولنا، والاعتزاز بتنوّعنا.

وللدفاع عن ثقافاتنا بهذه الطريقة، نحتاج إلى أطر متعددة الأطراف. وهنا تعتبر التعددية ضرورية لعملنا في مجال الثقافة والأدوات المعيارية كذلك، لأن الثقافة مادة صعبة أيضًا. فالاتفاقيات والمعاهدات تحدد المبادئ والتعريفات المختلفة للقيم الثقافية. تصادق الدول الأطراف على هذه الاتفاقيات وبالتالي تلتزم بالقيم ذات الصلة وتتشاركها. وهذا يشكل نجاح للدبلوماسية الثقافية النشطة. فالدول الأطراف أعضاء في المنظمات الحكومية الدولية وتستثمر الأموال العامة في أنشطتها من أجل الصالح العام. ويشكل هذا أيضًا نجاحاً للدبلوماسية الثقافية. لذا، فمن الضروري هنا إبراز الدور المهم للخبراء في الدبلوماسية الثقافية في الحوار وتبادل المعرفة ودعم بعضنا البعض، وتبادل الخبرات الجديدة، مما يعكس وجهات النظر الأخرى ويبرز التنمية المشتركة للمفاهيم الجديدة والسياسات العالمية الجديدة، أما إطار العمل فهو المحرك للتعاون الثقافي الدولي.

وفي مجال التراث الثقافي، تعد اتفاقية التراث العالمي لمنظمة اليونسكو أحد الأمثلة البارزة لمثل هذا التعاون الثقافي. نظرًا لكون هذا التعاون عالميًا، فقد أصبحت تلك الاتفاقية أنجح أداة دولية لحماية التراث الطبيعي والثقافي.

ومن المعروف جيّدًا أن هذا النجاح يرجع أيضًا إلى التآزر مع صناعة السياحة المتنامية (وبالطبع مرة أخرى، نحن نتحدث عن المال). ولكن إذا ما ركّزنا على الإنجاز الثقافي للاتفاقية، فينبغي أن نعتبرها ضخمة: مع اتفاقية التراث العالمي، تتفق جميع دول العالم تقريبًا على تعريف المفاهيم الثقافية مثل مَعلم أو موقع، والمناظر الطبيعية الثقافية، والأصالة والسلامة. وتلتزم جميع دول العالم تقريبًا بحماية وحفظ أكثر من ألف موقع من مواقع التراث الثقافي والطبيعي الثمين في جميع أنحاء العالم.

منذ عام 1972، جرى العمل على تطوير مفاهيم اتفاقية التراث العالمي بشكل مستمرّ، كما جرت مناقشة المقاربة الغربية الأصلية وتعديلها لتصبح أداة قابلة للتطبيق عالميًا. ومع ذلك، لا يزال توازن قائمة التراث العالمي مصدرّ قلق، وكذلك مصداقيتها، وتلك هي القضايا التي ينبغي على الدبلوماسية الثقافية أن تعالجها.

وكما ذكرنا سابقًا، ينبغي لهذا العمل أن يكون مدفوعًا بالخبرة. فمناقشة المحتوى والتطوير المشترك المفاهيم الثقافية الجديدة، والأسئلة الأخلاقية، أو بشكل أكثر تحديدًا قضايا حفظ التراث، وتدابير الحماية الفعّالة أو طرق تقييم الأثر ينبغي أن تكون ذات فائدة كبيرة عند مشاركتها ومناقشتها والاتفاق عليها عالميًا. وللقيام بذلك، نحن بحاجة إلى الخبرة والمعرفة التقنية لنكون جديرين بالمصداقية والفعالية والابتكار.

أما في مجال التراث العالمي، فقد أصرت سويسرا دائمًا على اتخاذ القرار على أساس الخبرة الموثوقة والالتزام بالقواعد. ومن الصعب أحيانًا أن نكون ثابتين بهذه الطريقة، وقد يضعنا ذلك في خانة الأقلية السياسية - ولكن نادرًا ما نكون أقليّة بين مختصى التراث، حيث يشترك معظم الخبراء في الالتزام نفسه.

تعتبر منظمة إيكروم، من حيث أنها منظمة حكومية دولية، منظمةً صغيرةً ولكنّها منظمة مرجعية للغاية، وهي أيضًا مكان مميّز للتعاون الثقافي ولوضع سياسات التراث الثقافي. وبالتالي، فإن منظمة إيكروم تدافع عن النتائج المعترف بها عالميًا، وهي ملتزمة بالقيم الثقافية وبحفظ التراث الثقافي. كما أنها منظمة تعتمد على الخبرة. وحيث يتألف مجلس المنظمة من خبراء يعملون لصالح المنظمة ويدافعون عن أهدافها و غاياتها، وهذا يعني أنهم يعملون لمصلحة التراث، وهم ليسوا بالضرورة في موقع الدفاع عن مصلحة بلدهم.

إن المناقشات والمداو لات في الجمعية العامة للدول الأعضاء في منظمة إيكروم هي أيضًا مدفوعة أساسًا بالخبرة. وقد ظلّ العديد من الخبراء من الإدارات الوطنية يمثلون بلدهم مع "المنظمة" لسنوات عديدة، وغالبًا ما نسمع تعبير "عائلة المنظمة". وهذا يخلق حوارًا سهلاً بين خبراء التراث، ويختلف عن المفاوضات بين المزيد من الممثلين السياسيين للدول الأعضاء، حيث أن حفظ التراث هو المصلحة الرئيسية المشتركة والحقيقية لجميع الخبراء. ولا داعي للاتفاق دائمًا على كل شيء، فالمناقشة هي مناقشة تقنية، وتعبير "تقنية" ليس سلبيا بكل تأكيد. بعد مداخلتي هذا، هناك بالطبع إذاً الجانب السياسي للدبلوماسية الثقافية.

واليوم، ينبغي علينا مناقشة الاتفاقيات الثقافية الدولية، وبالتالي مناقشة الثقافة والتراث الثقافي على المستوى السياسي كي تكون مقبولة من قبل أي شخص وتكون متّفق عليها. وقد تتمّ إساءة استخدام المبادئ المتفق عليها ذات مرة وتسيسها. كما قد يتمّ عدم احترام القيم الثقافية والحقوق الثقافية، وقد يتأذّى الناس باسم الثقافة. وقد تنشأ النزاعات السياسية حول الأسئلة الثقافية والحلول السياسية تغدو مطلوبة. وعادة ما يكون هذا الجزء من الدبلوماسية الثقافية هو عمل الدبلوماسيين المحترفين. ومع ذلك، فإنهم يتصرّفون بموجب التعليمات، وهذه التعليمات ينبغي أن تحافظ على الثقافة وتصونها.

الدبلوماسية الثقافية

د. منير بوشناقي

تركز هذه الدراسة على جوهر حفظ التراث الثقافي وتعزيزه لدعم وسائل الحوار الثقافي والتعرّف على تراث "الأخر". ويمكن تحقيق ذلك من خلال الدبلوماسية الثقافية في إطار عملية من التفاهم المتبادل والإسهامات الإقليمية للتنوّع الثقافي والتراث المشترك للبشرية. وقبل التطرّق إلى بعض الأمثلة التي توضح دور التراث الثقافي وتأثيره في الحوار وفهم "الأخر"، أود أن أذكر أن عمل منظمة اليونسكو في حفظ التراث الثقافي ينبع أصلاً وبشكل طبيعي من قانونها التأسيسي الذي "يعهد إليها بحفظ التراث العالمي للأعمال الفنيّة والمعالم ذات الأهمية التاريخية أو العلمية وحمايته". وهذا ما يفسر الصورة التي يحتفظ بها الجمهور عن هذه المنظمة الدولية التي يقع مقرّها في مدينة باريس، العاصمة الفرنسية. وغالبًا ما تتمّ مطابقة هذه الصورة مع الحملات الدولية الكبرى لحفظ تراث البشرية وخصوصاً أشهرها حتى يومنا هذا، تلك المتعلقة بأثار كل من "معالم فيلة" و"أبو سمبل" في مصر.

سعت منظمة اليونسكو منذ إنشائها في السادس عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1945 في لندن، إلى تعزيز العمل الدولي في هذا المجال ذي الأهمية الكبرى للتراث الثقافي وتحريكه، وذلك بدعم من خبراء من الدول الأطراف والمنظمات المهنية، ومنظمات غير حكومية مثل المجلس الدولي للمتاحف - إيكوم، والمجلس الدولي للمعالم والمواقع - إيكوموس، والاتحاد الدولي لجمعيات ومؤسسات المكتبات - إيفلا، وقد جاء ذكر هم على سبيل المثال لا الحصر. وعلى مرّ السنين، دفع هذا الإجراء المجتمع الدولي إلى النظر لأول مرّة في تاريخه - في كل من التعبيرات المادية وغير المادية لإبداع الشعوب بوصفها كلاً واحدًا غير قابل للتجزئة. ونظرًا لأن كلّ تعبير بات يُفهم الأن، وفقًا لقيمته، وبوصفه عنصرًا من عناصر التراث العالمي، فإنه من الأهمية بمكان معرفةُ ما إذا كانت هذه التعبيرات جميعها قد تمّت دراستها واحترامها وحفظها ونقلها إلى الأجيال القادمة. كما أن دستور منظمة اليونسكو يشير أيضًا إلى أهمية "حفظ ... التنوع المثمر للثقافات". وإدراكًا منها لهذه المسؤولية، تستخدم منظمة اليونسكو الوسائل المعيارية والأخلاقية والتشغيلية لحماية التراث الثقافي بجميع أشكاله المتنوعة.

وبالمثل، فإن منظمة إيكروم وهي أيضًا منظمة حكومية دولية أنشأتها منظمة اليونسكو، تعمل في خدمة الدول الأعضاء فيها لتعزيز حفظ جميع أشكال التراث الثقافي في كلّ منطقة من مناطق العالم. وهي تعمل بروح إعلان اليونسكو العالمي بشأن التنوّع الثقافي الذي صدر عام 2001، والذي ينصّ على أن "احترام تنوّع الثقافات والتسامح والحوار والتعاون في مناخ من الثقة والتفاهم المتبادليْن يعدّ من بين أفضل ضمانات السلام والأمن الدوليين".

وبالنسبة لكل من المؤسستين الدوليتين، اليونسكو وإيكروم، فإن هدفهما الأسمى هو تعزيز التنوّع الثقافي في العالم، والذي يعدّ ضرورة أخلاقية و يشكّل التراث المشترك للإنسانية.

فكيف تسعى المنظمتان لحفظ التنوّع الثقافي والحفاظ عليه؟ يتم تحقيق ذلك من خلال أنشطتهما العالمية، ومن خلال وضع المعايير الدولية في مجال الثقافة والعمل على الالتزام بها. وفي الواقع، كان وضع المعايير أحدَ الوظائف الأساسية لمنظمة يونسكو وأبرز أولوياتها منذ تأسيسها. ففي إطار قدرتها على وضع المعايير، أنتجت منظمة اليونسكو العديد من المعاهدات القانونية الدولية الملزمة في المجالات الأساسية للثقافة، وهي: التراث الثقافي والطبيعي، والممتلكات الثقافية المنقولة، والتراث المغمور بالمياه، والتراث الثقافي غير المادي، والإبداع المعاصر. وهكذا، تعمل منظمة اليونسكو كمنتدئ مركزيّ لتنسيق المناقشات وتسهيل تطوير المعاهدات الدولية من قبل الدول الأعضاء فيها.

تجارب دولية في تعزيز الحوار في منظمتيْ اليونسكو وإيكروم



◄ الشكل 1:
 ضريح في محمية
 متحف البلغار التاريخي
 والمعماري

وقد اعتمادت حتى الآن ستّ اتفاقيات دولية (1954، 1970، 1971، 2001، 2003، 2005، 2006) وإحدى عشرة توصية وإعلانين من قبل الهيئات الإدارية لمنظمة اليونسكو في مجال التراث الثقافي. وهي، من خلال التعاون الدوليّ، تغطي الجوانب المتعدّدة والمتطوّرة للتراث. وعلى مرّ السنين، قدّمت هذه الأدوات المعيارية مبادئ استشرافية في النقاش العالمي المتطور حول التراث الثقافي وأهميته للبشرية. بهذه الطريقة، أعادت منظمة اليونسكو التأكيد على دورها الريادي في هذا المجال، مع هيئاتها الاستشارية، مثل منظمة إيكروم، والمجلس الدولي للمعالم والمواقع-إكوموس، والمجلس الدولي للمتالم في

لنأخذ بعض الأمثلة حيث أعربت منظمة اليونسكو عن تقدير ها للروح القائمة بالفعل للحوار بين الثقافات، وأيضًا حيث سلط تنفيذ برامج منظمة اليونسكو في مجال التراث الثقافي الضوء على أهمية الحوار بين الثقافات. والمثال الأول الذي أود أن أذكره موجود في مدينة قازان، عاصمة تتارستان. فقد وافقت لجنة التراث العالمي على الخلاصة التالية حول موقع التراث العالمي في قازان:

- هذه القلعة التاريخية هي نتيجة تفاعل الثقافات المختلفة البلغار، والقبيلة الذهبية، وقازان تتار في العصور الوسطى، والإيطالية، والروسية، والتتار الحديثة.
 - إنه الحدّ الشمالي الغربي لانتشار الإسلام، والأقصى الجنوبي لأسلوب بسكوف-نوفغورود.

وينعكس هذا التوليف الفريد بين الطَّرز المعمارية النتارية والروسية في المعالم الأثرية الرئيسية (برج سيويومبيكي وكاتدرائية البشارة وبرج المنقذ).

كما أنه ليس بالإمكان فصل المجموعة عن محيطها والمدينة بأكملها، حيث تشكّل الأحياء التاريخية المنطقة العازلة. ويمكن فهُمُ المسجد الجديد الذي تم بناؤه داخل المُجمّع على أنه بناء جديد في سياق تاريخي.

ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن "البناء يعيد توحيد مجموعة الكرملين، ويثري الهندسة المعمارية للمدينة، ويرمز إلى التعايش السلمي بين مختلف الثقافات، الإسلام والمسيحية، مما يجعل المسجد معلمًا استثنائيًا". وتعكس المعايير الثلاثة، الثاني والثالث والرابع، بوضوح تام هذا الوضع الفريد والتي تم بموجبها تسجيل الموقع. "إن مجمّع كرملين في قازان يمثّل شهادة استثنائية على الاستمرارية التاريخية والتنوّع الثقافي على مدى فترة طويلة من الزمن، مما أدّى إلى تبادل مهمّ للقيم التي تولّدها الثقافات المختلفة".

"وتمثّل القلعة التاريخية شهادةً استثنائية عن فترة الخانات، وهي حصن النتار الوحيد الباقي الذي يحتوي على آثار لمفهوم تخطيط المدينة الأصلي". "إن كرملين قازان وآثاره الرئيسية هي مثالً بارز لتوليف التأثيرات النترية والروسية في الهندسة المعمارية، ودمج الثقافات المختلفة (البلغار، والقبيلة الذهبية، والنتار، والإيطالية، والروسية)، فضلاً عن إظهار تأثير الإسلام والمسيحية".

هذا بالضبط ما رأيته وشعرت به خلال رحلاتي إلى قازان وجمهورية تتارستان التي كانت بدأت منذ عام 2000.

وبفضل الرؤية السياسية والثقافية لرئيسها، الدكتور مينتيمر شايمييف، أصبح هناك تعايش سلميّ وحوار حقيقيّ بين المجتمعات المجتمعات المختلفة وسكان هذا البلد المسمّى تتارستان، حيث يمكنك أن ترى جنبًا إلى جنب مجتمعات من أصول تتارية ومجتمعات من أصل روسي.

على سبيل المثال، يمكن للمرء داخل الكرملين في قازان أن يرى المنطقة المجاورة للكنيسة الأرثونكسية (كاتدرائية القديس بطرس وبولس) والمسجد (قل شريف ماسيتي)، حيث تبلغ المسافة الفاصلة بين هذين المبنيين الدينيين المهمّين أقل من مانتي متر. وقد كان هذا أحد عناصر القيمة العالمية البارزة لإدراج كرملين قازان في قائمة التراث العالمي في عام 2000. وقد شدّد بيان التراث العالمي على حقيقة أنه "تجدر الإشارة إلى أن البناء يوحد مجموعة الكرملين ويثري الهندسة المعمارية للمدينة ويرمز إلى التعايش السلمي بين مختلف الثقافات والإسلام والمسيحية، مما يجعل المسجد نصبًا استثنائيًا".

في عملية إدراج موقعين آخرين لتتارستان على قائمة التراث العالمي لمنظمة اليونسكو، بمبادرة من الرئيس مينتيمر شايمييف، من الممكن ادراك استمرار لروح الاعتراف بالثقافات والتفاعل السلمي بينها، فللموقع الإسلامي في بولغار (المجمّع التاريخي والأثري لبولغار)، الذي تمّ تسجيله في عام 2014 والموقع المسيحي الموجود في جزيرة زفيياز هاسك (كنيسة الصعود ودير المدينة-الجزيرة في زفيياز هاسك) الذي تمّ تسجيله وإدراجه على لائحة التراث العالمي، في عام 2017. علاوة على ذلك، نلاحظ أنه في قازان، عاصمة جمهورية تتارستان، يوجد مكان رائع يجمع بين الديانات الرئيسية في العالم، يطلق عليه اسم "معبد جميع الأديان" أو "معبد الأديان السبعة" أو "المعبد العالمي".



✓ الشكل 2:
 كاتدر ائية البشارة في
 كرملين بقاز ان

تجارب دولية في تعزيز الحوار في منظمتيْ اليونسكو وإيكروم

لهذا السبب أعلن الرئيس منتيمر شايمييف في عام 2012: "إن الحالة الإيجابية للعلاقات بين الأعراق والطوائف، وروح التفاعل السلمي والتعاون بين المجموعات العرقية المختلفة كانت دائمًا إنجازنا الذي لا شك فيه". والجدير بالذكر بأنه بفضل الرئيس منتيمر شايمييف، عاد الاتحاد الروسي إلى مقعده في منظمة إيكروم. وهذه عملية طويلة أظهرت الإيمان القويّ لهذا الرئيس بالتعاون الدولي وأبرزت بطولته حقيقية في العمل على تعزيز الحوار بين الثقافات، ولا سيّما من خلال التراث الثقافي. لهذا السبب تم تعيينه، في شهر آب/ أغسطس عام 2017 من قبل المديرة العامة لمنظمة اليونسكو، السيدة إيرينا بوكوفا، مبعوثًا خاصًا للحوار بين الثقافات.

والمثال الثاني من البوسنة والهرسك، وبشكل أكثر تحديداً في مدينة موستار. ففي الثالث والعشرين من شهر تموز/ يوليو عام 2004، تم في موستار، افتتاح الجسر القديم الذي أعيد بناؤه من قبل رئيس الرئاسة الثلاثية للبوسنة والهرسك، سليمان تيهيتش، والمدير العام لمظمة اليونسكو كويشيرو ماتسورا، ممثلين للأمم المتحدة بأكملها، بحضور حوالي عشرة رؤساء دول. وغيرهم من كبار الشخصيات السياسية الأوروبية.

وقد تمّ في عام 1993 تدمير الجسر القديم، الذي كان رمزًا لمدينة موستار، خلال حرب البوسنة والهرسك. وقد أعيد بناؤه بعد أحد عشر عامًا، وأصبح هذا الجسر رمزًا للمصالحة والتضامن الإنساني. في التاسع من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1993، انهار الجسر القديم في موستار في مياه نهر نيريتفا بعد إصابته بقذاف ثقيلة. هذه المدينة، التي فقدت عددًا كبيرًا من سكانها خلال الحرب، تلقت ضربة في قلبها. كان تعريف موستار مرتبط بهذا الجسر، والتي تدين له حتى باسمها: "معظم" تعني جسرًا باللغات المحلية. منذ بنائه بين عامي 1557 و 1566 من قبل المهندس المعماري العثماني معمار هاجر الدين، أحد تلاميذ الأستاذ الشهير سنان، صمد "الجسر القديم" (ستاري موست) - كما أطلق عليه الناس في موستار - في كل أنواع الكوارث والغزوات والحروب و حتى الزلازل.

وهذا ما قاله المدير العام فيديريكو مايور بعاطفة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام 1993:

"بصفتي المدير العام لمنظمة اليونسكو، لا يمكنني أن أبقى صامتًا إزاء التدمير المتعمّد، الذي جرى في التاسع من تشرين الثاني / نوفمبر 1993، لجسر ستاري موست في موستار. إنه مثال رائع للعمارة العثمانية في القرن السادس عشر، بناه سليمان القانوني. الجسر القديم لموستار، الذي يمتذ على طول نهر نيريتفا، كان رمزًا وواقعًا على حدٍ سواء. ومن خلال تدميره، يحاول مرتكبو هذا العمل المشين القضاء على تاريخ بلدٍ وعلى شعبه أيضاً. وهم بذلك يدمّرون أيضًا جسور التفاهم المتبادل التي بناها أناس من أصول ومعتقدات دينية مختلفة تعلّموا العيش معًا في سلام ووئام".

لقد تم تدمير الجسر القديم لقيمته الرمزية. ولهذا السبب نفسه، عملت منظمة اليونسكو مع الخبراء المحلبين من المجتمعات الثلاث، البوسنيون والكروات والصرب، بمساعدة خبراء دولبين من أجل إعادة بنائه.

"نحن موجودون في موستار من أجل بثّ حياة جديدة في تراث استثنائي يحتاج، بعد استخدامه كهدف، إلى أن يصبح علامةً حشد، و علامة اعتراف، و رمزًا قويًّا للهويّة التعدّدية القائمة على الثقة المتبادلة" قال كويشيرو ماتسورا، المدير العام السابق لمنظمة اليونسكو، بخصوص الموقع المهم الذي تم الإعترافيه بعد ترميمه، كموقع للتراث العالمي.

"تمّ إدراج منطقة الجسر القديم لمدينة موستار القديمة في قائمة التراث العالمي في يوليو 2005، مما يؤكد الجهود غير المحدودة للتضامن البشري من أجل السلام والتعاون القوي في مواجهة الكوارث الساحقة" (لجنة التراث العالمي، القرار رقم 29 8B.49).

وبالإضافة إلى توسيع نطاق تعريف التراث الثقافي، عملت منظمة اليونسكو على إثبات أهمية التلاحم والاندماج الاجتماعي والتقريب بين المجتمعات الثقافية. وببساطة، يمكن للثقافة أن تسهم في بناء ثقافة السلام وتعزيزها. وبحكم القيم والذاكرة الجماعية التي يقدّسها التراث الثقافي، فإن لديه القدرة على غرس الشعور بالفخر والأمل والانتماء في المجتمعات.

وقد صرّح الرئيس الجديد للصندوق العالمي للآثار والمعالم بأن "التراث الثقافي يربطنا بشيء أكبر من أنفسنا - إحساس بالتاريخ، وبالمجتمع، والتقدير المشترك للإنجازات البشرية".

لهذا السبب، تعمل كل من منظمة اليونسكو ومنظمة إيكروم لصالح التراث في حالات ما بعد النزاع أو ما بعد الكوارث، سواء أكان ذلك في جنوب شرق أوروبا (جسر موستار في اليوسنة والهرسك) مؤخرًا، أو جمهورية الكوانغو الديمقراطية، وأفغانستان (بوذا باميان) وهايتي (زلزال عام 2010)، وتايلاند (فيضانات عام 2011)، وزلزال النيبال (عام 2016)، ولكن أيضًا في كل من ليبيا ومالي وسورية والعراق واليمن، وذلك لتمكين الشعوب التي عانت من الألم الناتج عن الصراع أو النزاعات أو الكوارث من إعادة اكتشاف ما هو مشترك، الهوية الثقافية، وبالتالي إرساء أسس التقارب والمصالحة التي تعدّ حيويّة لبناء مستقبل مشترك وسلميّ.

وخلال ما يسمّى بـ "الربيع العربي"، شاهد الناس في جميع أنحاء العالم تغطية إخبارية للشباب الذين ينشئون سلاسل بشرية لحماية الكنوز الثقافية مثل متحف الآثار المصرية في القاهرة ومكتبة الإسكندرية، ومكتبة مصر الحديثة التي تم إنشاؤ ها بالتعاون مع منظمة يونسكو. وخلال هذه الأحداث المضطربة، أظهر الشعب المصري وبخاصة الشباب والجيش تضامنًا هائلاً وشجاعة وفخرًا في حماية تراثهم الثقافي، مما يبرز إمكانات الثقافة في تأكيد الهوية وتعزيز التماسك الاجتماعي.

ختام

في السياق الحالي، وبعد مرور واحدٍ وعشرين عامًا على "المؤتمر الحكومي الدولي المعني بالسياسات الثقافية من أجل التنمية" (ستوكهولم، 1998)، واثنين وسبعين عامًا بعد صدور "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان"، يوفّر تسريع عملية العوْلمة والتطوّر المذهل لوسائل الاتصال، فرَصًا جديدةً في العلاقات بين الشعوب والأمم والثقافات على المستوى العالمي، ولكنها تمثل أيضًا تحدّيات جديدة.

إن الافتقار إلى الفهم والشعور بعدم الثقة بين الأفراد المنتسبين إلى خلفيات ثقافية مختلفة قد ازداد للأسف في الأونة الأخيرة، وتطوّر شعور عام بعدم الأمان. فإدراك وجود ضعف مشترك كبير، ونقص في النقاط المرجعية، والحاجة إلى العمل من أجل الحفاظ على السلام، وحلّ النزاعات، يظهر أن الحوار قد أصبح ضروريًا للغاية"، كما كتبت السيدة كاتيرينا ستينو، مديرة قطاع الثقافة في منظمة اليونسكو، في إحدى مقالاتها: "إن أهمية هذا الاجتماع تكمن بالتأكيد في لفت الانتباه إلى الموقف الواضح لاستر اتبجية منظمة اليونسكو فيما يتعلق بتعزيز الحوار بين الثقافات مثل ما تروّج له اليوم كل من منظمة اليونسكو ومنظمة إيكروم والدول الأعضاء نفسها". فكلمة "حوار"، التي أصبح من الضروري استخدامها منذ بداية هذا القرن ردًا على نظرية "صدام الحضارات"، دخلت تدريجيًا مفردات منظمة اليونسكو.

ويشدد دستور المنظمة على أن "الجهل بحياة وطرق عيش شعوب العالم كان سببًا لهذا الشك وانعدام النقة المتبادلة والتي من خلالها غالبًا ما تحوّلت الخلافات إلى حرب". كما ينص الدستور على أنه من الضروري "تطوير وسائل الاتصال بين الشعوب وزيادتها وتوظيف هذه الوسائل لأغراض التفاهم المتبادل والمعرفة الأكثر صحّة وكمالًا في حياة الشعوب".

وفي الاحتفال باليوم العالمي الثامن عشر للتنوّع الثقافي من أجل الحوار والتنمية في الحادي والعشرين من شهر أيار/مايو عام 2018، دعت المديرة العامة لمنظمة اليونسكو السيدة أودري أزولاي جميعًا لنتذكّر الكلمات الحكيمة للمهاتما غاندي حين قال: "لا أريد أن يكون منزلي محاطًا بالجدار من جميع الجوانب وأن تكون نوافذي محشوّة. أريد أن تتتشر ثقافة جميع الأراضي حول بيتي بأكبر قدر ممكن من الحرية".

يقترح المهاتما غاندي بهذه الكلمات أن الثقافة "ليست تراثًا محفورًا على الحجر، بل تراثًا يعيش ويتنفّس، منفتحًا على التأثيرات وعلى الحوار، وهذا ما يسمح لنا بالتكيّف بشكل أكثر سلمية مع التغيّرات في العالم".

إن منظمة اليونسكو تدعو الجميع في يوم الاحتفالات هذا إلى فتح أبوابهم ونوافذهم أمام "رياح التنوّع المنشّطة".

"تقدم وقائع هذا الملتقى نماذج دراسية وفكرية وتطبيقية تطرح قضايا بارزة حول مغهوم الأصالة والمعاصرة وإعادة البناء، وتطرح حلول تنبثق من دور المؤسسات الثقافية في إشراك المجتمع من خلال البرامج التعليمية ومن خلال المتاحف بتواصلها مع المجتمعات المحلية المختلفة، وكذلك من خلال تعزيز دور الحوار الثقافي في فهم تراث "الآخر". وتستعرض وقائع الملتقى أيضا بعض التطبيقات لمفهوم الأصالة وسماتها أثناء أعمال التصميم والتنفيذ والتفسير وعرض المشاريع التي تهدف إلى حماية وإبراز وإدماج التراث الثقافي كرافد أساسي في التنمية المجتمعية المستدامة."

د. زكي أصلان – مدير المكتب الإقليمي (إيكروم – الشارقة) م. شيرين ساحوري – المكتب الإقليمي (إيكروم – الشارقة)



إيكروم-الشارقة (المكتب الإقليمي لحفظ التراث الثقافي في الوطن العربي)

صندوق بريد 48777، الشارقة الإمارات العربية المتحدة هاتف: 2250 505 600 +971 فاكس: 2213 555 6(0) 971 www.athar-centre.org www.iccrom.org

